

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم شرق الدلتا الثقافي
ثقافة الدقهلية

إبراهيم جاد الله

بيت من زجاج وحجر

تأملات فى الفكر والثقافة العربية





إبراهيم جاد الله

بيت
من زجـــاج وحجـــر

تأملات فى الفكر والثقافة العربية

لوحة الغلاف للفنان : رؤوف رأفت

إلي

إلي . نقطة الشرف العربى الوحيدة
فى الزمن اللاعربى

* * *

وإلي . دكتور محمود إسماعيل

* * *

وإلي . سلمي محمود إسماعيل
ويمنى إبراهيم جاد الله
وأيامهما القادمة

إبراهيم جاد الله

مايو ٢٠٠٢

كلمة للثقافة

كان أكثرنا احتواءً لذاته ، وأشدنا قسوة علي نفسه ، وكنا نشفق عليه كثيراً منها ، ولكنه كان يفاجئنا بدفء قلبه ، فنعجب لأمره .

هو الذي كان يقمع أي شئ يسدُّ طريق المعرفة والتلقي والاندماج فى الواقع الحياتي أو الثقافى أمامه .

هو الذي كان يقاوم نزواته الصبيانة - وقت كنا صبية ، ويغفل عن مباهج الدنيا - وقد كبرنا - يفاجئنا دوماً بكيان شفيف ، وروح تتعذب لأقل ألم يلم بواحد منا ، وكنا ندرك عندما يطول صمته ، أنه مستغرق فى عمل جاد ، يحول فيه مألوف حياتنا لأمر غريب ، وكأننا نراه للمرة الأولي ، نحن كتيبة أصدقائه .

إبراهيم جاد الله الذي بدأ فى سبعينات القرن الفائت شاعراً فى " بكائيات " متحولاً فى نهايتها إلي المسرح الذي عشقه ودرسه ، وصار فيه من الباحثين العرب الجادين ممن يشار إلي جهودهم ، وتتداول اللقاءات والمهرجانات المسرحية العربية أبحاثه ووجهات نظره، وحملها كتابيه الهامين المسرح العربي والتحدي الحضارى ، والثابت والمتحول فى المسرح العربي .

وكان توقنا إلي كتاباته القصصية يتنامي دوما ، حتى أدركتنا مجموعتاه القصصيتان " ظهيرة اليقظة " ، " تداعيات الزمن المر " وقد أثارتا ما أثارتا وحصدت الأولي ما حصدت من جوائز ومن إعجاب وردود فعل ببعض الجروح ، فتأكدنا من حضوره فى ساحة القصة التى عشقناها مثله .

وكانت سياحته فى بحار الثقافة والفكر والفن العربى قد أثمرت حوارات مع مبدعين رموز فى الكتابة والفكر والفن العربي أجراها معهم بحرفية ومهارة الحرفي العالم بأسرار حرفته وضمها كتابه صاحب الجوائز (شدو طائر عربى) فى جزئه الأول .

وها هو فى بيته الزجاجي الحجرى يطل بوجه جاد متأملا فى قضايا شائكة لم يلامسها عن بعد ، بل سبر أغوارها فى كثافة لغوية ، ويقين ثابت نأمل لك عزيزي الإفادة من هذا الكتاب الشائق .

الشاعر : مصطفى السعدني

مدير عام ثقافة الدقهلية

لماذا بيت الزجاج .. وبيت الحجر ؟

تعال يا هذا . فقد أصبحت كتاباً ، تقدر علي المشى كالأطفال ، وعلي الطيران كالعصافير ، ولكن هل تمشي وتطير بدون حساب يسير أو عسير ؟ إننا فى زمن حساب النفس وحساب القيادات ، ولا أعنف حساب من حساب الكلمة المطبوعة ، وأقف الآن فى " قبضة التساؤل " هل تظن أن ما تسمي عاطفة تمنعني من وضعك فى محك الاختبار ؟.

أعرف أن أبوة الكتب . غير أبوة البشر ، لا تخلو الأبوة الكتبية من عاطفة، ولكنها تنهض علي أرومة عقلية ، أو عقل ترتكز علي أساس عاطفي لا فرق ، بين عاطفة علي اساس عقلي ، أو عقلية علي أساس عاطفي ، المهم صحة الأساس .

صديقي . لقد كنت مني كالجنين ، وأصبحت الآن وليداً تنتسب إلي ، وتنتمي إلي نفسك ، لأنك مني منفصل عني ، وعلي هذا المفهوم أقف معك موقف التساؤل الفني والفكرى .

لماذا جمعت أشلاءك المنحوسة من أوراق المجلات المهملة والصحف المرمية ؟ أتظن أنك أعدت خلقك وتبديت أحسن مما كنت ؟ " .

وأنا فى موقف التوحد مع صاحب ما سلف من كلام ، وهو الشاعر العربي الكبير الراحل . عبد الله البردوني ، وقد صادقته وتتلمذت علي كتاباته سنوات طوال باليمن السعيد ، أجدني فى حضرة المشهد ذاته ، ألم مقالاتي من أوراق المجلات والصحف المكدسة ، وأعايش الحالة نفسها ، مقالات نشرت هنا وهناك ما بين صحيفة " الجمهورية " باليمن ، و " القدس العربي " بلندن ، و " الصباح " التونسية ، و " القاهرة " و " العربي " بمصر . هي رؤي مغايرة . عن أفكار عابرة . تحاول إستباق المألوف أو تجاوزه ، وأخري متجذرة تجذر اليقين ، وما بين العابر واليقين ، تصبح الكتابة لدى عملاً غير

عادي ، ذلك لأنها من أعمال الروح ، بقدر ما هي من أعمال الفكر والعقل ، فالمرء لا يكتب لمجرد أن لديه شيئا ما يقوله ، وفى لحظة ما ، وبالنسبة لقضايا معينة، يمكن أن يكون للإنسان ما يقوله ، أما أن يكتب ، ويتحمل مسئولية نشر ما يكتب فذلك أمر مختلف .

إن عليه – الكاتب – أن يقوم ، أو فى الواقع ، أن يهزَّ فى داخله مشاعر وأحاسيس لابد وأن تكون حارة لكي يكتب ما يكتب بطريقة تقنع الآخرين ، أو تحثهم علي القراءة وحدها ، إنما علي التفاعل مع الكتابة .

الكتابة إذن ، فعل مشاركة حقيقي ، نوع من أنواع زواج المشاعر والأفكار، ولو مؤقت ، آني وسريع ، بين طرفين مختلفين ،ومتباعدين ، ولكنهما مستعدان لخوض حوار ، علي الكاتب أن يضع فى عيني اعتباره ، أنه لكي يكون حواراً حاراً وخلاقاً فلابد أن يصدر من أعمق أعماق الفكر والروح ، ولايهم بعد ذلك أن نختلف أم نتفق مع ما نكتب أو نقرأ ، الاختلاف والاتفاق هنا ، لابد ان ينحسر إلي موقعه الطبيعي ، وهو أن الناس مختلفون، عادة ، وأن لهم الحق فى أن يتخذوا الموقف، وأن يتبنوا الرأي الذي يرونه ملائماً لهم – أوالذي يجدونه أقرب إلي الحقيقة .

واليقين الذي لا يتزعزع لدى أيضا ، أنه بقدر ما نملك ثقافة للكتابة ، فلابد أن نخطو لقارئ يمتلك ثقافة للقراءة أيضا ، وما بين ثقافة الكاتب وثقافة القارئ علاقة جدلية تقوم علي أساس أن سياق النص هو الذي يحمل الآراء والمناهج والمقولات ، التى هي أبجدية ثقافة الكاتب .

وما يعنيني هنا .هو هذا الكشف الذي سيقوم به القارئ عن المنتج المعرفي لسؤال شرعي طرحته في واحدة من تلك المقالات ، وأظنه يلقي بظلاله علي الأخريات .، وهو ما الذي نكتبه اليوم ، وليس ما نكتب عنه ، فالكتابة عنه أصبحت من مخلفات الزمن .

وليس المطلوب أن يبحث الكاتب عن قضية كي يعتنقها ، ولكن من الضروري ألا يتجاهل أو ينكر قضايا قائمة ، فقضية الإنسان لم تستنفذ بعد ،

وأحاول بقدر جهدي – القليل – تأكيد ذلك . ..

فإذا لم يكن الإنسان قضية ، فما تكون القضية ؟!

وقد حاولت فى سياق النصوص التى ستأتي ، التقاط صورة ذهنية – قدر المستطاع – لبيوت الزجاج ، التى تكشف عرى وهشاشة الواقع فى ثقافتنا العربية المعاصرة ، والتى يسهل اقتحامها من غير قدر ولو قليل من التلصص ، تلك التى أري قاطنيها يطالبوننا بتبعية أكثر للغرب فى استعمال بليد لحجة أننا متخلفون ، ولابد أن يكون لنا سيد يوجِّه خطانا ، ويحمينا من أنفسنا وهمجيتنا ، ويخلصنا من تاريخنا ، وأخري لبيوت حجر عفية راسخة ، تصد عن أهلها كل ريح سموم تمتص منهم رحيق الحياة ، والأمر لا يخلو من فتح النوافذ علي الآخر ، وفى الوقت الذي يعيد سكان هذا البيت النظر في كل شئ لا يتناسون ، أن هناك قوي ما زالت تسعي إلي احتوائنا ، وهم يقرنون نقدهم الذاتي بنقد الآخر الذي أصبح جزءاً من هذا التراث .

وإذا كان ثمة سؤال ذاتي أو منهجي يعبر إلي القارئ ، ولم أحدد تضاريسه، فلعل آلية القراءة الذاتية أو المنهجية ، هي التى ستحدد معي موضع علامات الاستفهام ، وستحدد بيوت الزجاج أو بيوت الحجر فى ثقافتنا العربية أيضا .

وهذا ما أستهدفه .

ولعلي فى الأخير أري ضرورة الإشارة إلي امتنان لرجال ومواقف ، رجال يعلو قدرهم وشأنهم بالنسبة لي ، وفى الواقع الإبداعي الفكري والثقافى العربي .

للدكتور عبد العزيز المقالح المؤسس والراعي لحركة إبداع أدبي وثقافي فى بلاد اليمن السعيد ، ولروح رفيقه . آخر عمالقة الشعر العربي المعاصر عبد الله البردوني ، ثم لعز الدين سعيد أحمد ، وعبد الباري عطوان فى صحيفة (القدس العربي) وللدكتور عبد الرحمن ياغي بالجامعة الأردنية وصحيفة الدستور وبرابطة كتاب الأردن حتى منتصف ثمانينات القرن الماضي ،

وللدكتور خير الدين حسيب بمركز دراسات الوحدة العربية ببيروت ، وقد جعل الوحدة العربية يقينا فى وعي جيلي وأجيال آتية ، وللدكتور محمود أسماعيل . شرف الالتزام بصمته فى وقت غلبت فيه كل الأصوات الغوغائية، وفرّخ الحزن وتناسلت الكآبة علي كل المنافذ ، ولصلاح عيسي ، أينما كان، فتاريخه يسبقه علي كل حال .

والله من وراء القصد ،

إبراهيم جاد الله

يناير ٢٠٠٢/ المنصورة

سر الهزائم الدائمة

الإرهاصات النهوضية العربية التى كانت مصر وبلاد الشام مهدها الأول ، جاءت فى ظل تفتح الوعي فى هذه المناطق بعد الاصطدام بالغرب المدجج بالتقدم العلمي والمشاريع الاستعمارية الكامنة . فقد وجد " النهضويون " أنفسهم أمام سلسلة من التساؤلات المصيرية . زادها إلحاحاً العجز عن تحديد الهوية الذاتية القادرة علي مواجهة " الأجنبى " ذي الهوية القومية الواضحة والمصالح الحيوية التى لا ترد .

ولا يختلف اثنان فى أن الأفكار " النهضوية " منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وحتى ثلاثينيات القرن العشرين أنها كانت ردة فعل علي الاحتكاك بالغرب .وعلي رغم اختلاف أساليب المواجهة . إلا أن معظم رجالات عصر النهضة والتنوير كانوا متفقين علي مبدأ اساسي هو رفض الوجود الأجنبي الاستعماري الذي يقف عائقا أمام مساعي اكتشاف الذات وتحقيق هويتها الحضارية .

هؤلاء " النهضويون ، ساهموا إلي حد بعيد فى بلورة الوعي / السياسي / الثقافى / الاجتماعي فى طول العالم العربي وعرضه . غير أنهم لم يستطيعوا خلق النهضة الموعودة وظلت الأوضاع فى هذه المنطقة تسير من سيئ إلي أسوأ فى ظل متغيرات دولية عاصفة " منذ انتهاء الحرب العالمية الأولي وصولا إلي انتهاء الحرب الباردة فى تسعينيات القرن العشرين " كان عنوانها الأساسي " المصالح القومية".

وكنا نشهد دائما عودة إلى " الكتابات النهضوية " كلما قرع ناقوس الخطر فى العالم العربي ، أو واجهت الساحة تحديات يعجز العقل السائد عن اكتناه أبعادها .ففي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين " علي هامش نكبة فلسطين والاستقلالات الكيانية " برزت مظاهر العودة

إلي " النضهويين " وفى خمسينياته وستينياته " مع صعود المد الناصري ثم انهيار مشروع الوحدة " تكررت هذه الظواهر. أما فى أواخر التسعينيات "هزيمة يونيو، انتصارات الجيوش العربية فى اكتوبر" فقد تكثفت العودة إلي عصر النهضة لاستقراء رجالاته عن أسباب الهزيمة الدائمة ، وفى كل الحالات لم تكن الأجوبة كافية شافية .

ربما كان التحدى الذي يواجهه العقل السائد فى العالم العربي اليوم أكثر خطورة من كل الأحداث السابقة خلال القرنين الماضيين .لكن الرد لا يكمن - حسب قناعتنا - فى العودة السهلة المبسطة إلي تراث "النهضويين " كما صدر فى منتصف القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

فهؤلاء أنفسهم - علي رغم خدماتهم الجليلة - لم ينجحوا تماماً فى تقديم الصيغ الفاعلة علي الأقل فى مسالةالهوية ذات الإلحاحية المستمرة .

ثمة قضايا أساسية لا تزال موضوع خلاف فى العقل العربي مثلما كانت موضوع خلاف عند رجال النهضة . وإذا كنا نعتقد أن مجرد إعادة نشر كتابات الرواد " مثلما فعلته الهيئة العامة للكتاب فى مصر فى السنوات الأولي من تسعينيات القرن الماضي " أي منذ سنوات قليلة أن مجرد نشر هذه الكتابات يستطيع تقديم الدواء السحري لكل أمراضنا المعاصرة أو لبعض معضلاتنا الراهنة علي الأقل ، إذا كان هذا اعتقادنا فإننا نكون جاهلين لعمق الأزمة التى تهز الوجدان العربي وتجعله فى خصام دائم مع ذاته .

أما إذا كان المقصود بإعادة النشر وتكرار تلك المحاولة هو وضع الإطار الفكري العام لمناقشة تلك القضايا . فسنكون فعلا علي الطريق الصحيح لاكتشاف الذات أولا ومن ثم تحديد علاقاتها بالآخر " مواطنا كان هذا الآخر أو أجنبيا " ومهما حاولنا المكابرة أو المناورة فإن موضوع الهوية يظل حجر الأساس فى أي نقاش فكري داخل المجتمع المعني بتلمس طريقه فى عالم اليوم المعقد ، والحوار فى هذا الشأن علي خلفية مصلحة الوطن وأبنائه يشكل صمام الأمان كي لا يغرق المجتمع فى حربه علي نفسه .

" رواد النهضة " أنفسهم عانوا – كما يعاني مفكرو اليوم – من التضارب والفوضي وعدم الوضوح فى مقولاتهم النهضوية " قوميا واجتماعياً " .

وكتاباتـهم لا تشكل بالنسبة إلينـا سـوى دليـل عمـل يتضمـن المعـالم الأساسية فـى أزمتنـا المعـاصرة ، طبعـاً فى الأخذ فـى الاعتبـار التطـورات والمتغيرات الحاصلة خلال أكثر من قرن ، والتحدي الأكبر هو أن يثبت العقل العربي الآن أنه قـادر علي المواجهـة واسـتيعاب المرحلـة والخـروج بنتـائج محددة .. وإلا فإن جيلاً جديداً سيأتي بعد عقود ليعيد النقـاش حـول " جنس الملائكة " بينما الأرض التى نقف عليها اليوم لا نعرف لمن ستكون فى الغد ".

جريدة " القدس العربى "
٢٧ / ٣/ ١٩٩٨

الماضي في ملامح المستقبل

ما أحلي الرجوع إليه !

لا ينفك غير كاتب عربي منذ لوعة امرئ القيس أمام الإطلال حتى تأكيدات " العودة " في شعر الوجدان السياسي عن الترديد علي مسامعنا أن مستقبلنا رهن ماضينا ، ولا يتواني غير مثقف عن الزعم بأن نفخ رماد الدهور يضئ أيامنا الباهتة ، هذه المزاعم ليست جديدة ، لا بل تجد في القناعات السارية سنداً لها ، ونبدو في هذه الصورة أشبه بملوك من دون تيجانها ، أو بأسياد من دون أحذيتها ، حركة بسيطة ونستعيد ما كان .

أتبين طبعاً في هذه الدعاوي حيرة الوريث ،لا بل ضعفه ، أمام تركة الجد، الذي لا يقوي علي التهديد إلا بشاربي الراحل المعقوفين ، أتبين إذن خطاب السلطة المتاح والسهل حيث لا ينبري الوريث لإظهار ، لا قوته ولا أسهاماته ، بل بطاقة هويته ، أرومة نسله فقط ، أتبين ترفيع الخطاب والمجهود الأقل ، وهم التجديد وامتناع الأقل .

هذا ما أتبينه . إلا أن ما يشغلني هو هذه الثقة بأن المعرفة تقع خلفنا لا أمام عدونا ، أشبه بجامعي اللغة في القرنين الأول والثاني الهجريين الذين جابوا الجزيرة طلباً لـ " قيد ثبوتي يعني " إثبات قيد للغة العربية " الفصيحة" من دون أن يخلفوا لنا شيئا ، عدا إشارات الجاحظ اللاحقة إلي " لحن " أهل زمانه ، وواقع لغتهم هم وما كانت عليه . لا يزال غير كاتب عربي يجوب هذه الأرض " الخرافية " طلباً لمعان يريدها أكيدة ، منزهة ، لا يطاولها أي شك ، غير قابلة للنقد والتجريح والتغيير ، فيما المعني استثمار، ومراهنة ، ومزاعم في الزمن .

لكل أمة تقاليدها ومرجعيتها ، ولها أيضا سدنتها وحفظتها ، إلا أن ما يفسر هذا الولع بالماضي يقوم في راهننا ، في الخشية من الإقدام " وكدت

أقول : من العيش " فلا أحد يهدد هذا التراث حقاً ، إلا الذين يريدونه واحداً ، منزهاً ، فيما هو عامر ، ضمن حدوده الخاصة ، بما يشير إلي خلافاته وجدالاته واجتهاداته وراهنيته أيضا ، ولا أحد يقطع عنه أسباب الحياة إلا الذين يمنعون عنه النظر النقدى والتاريخي ، أي الذين يطبقون عليه بأكسية الجلال والتقدير ، فيبعدونه عنا بدل أن يقربوه منا ، يجعلونه غريباً عنا ، خارج تناولنا ، كما لو أنه من طبيعة غير تاريخية أو كان صانعيه فوق البشر، أنزلوا المعاني فى منازلها الصحيحة من دون تردد أو خوف أو مراهنة أو مراودة أو تعثر.

ما أريد قوله إن الولع بالماضي لا يعني الوقوف علي الأطلال وحسب ، بل وهم الكمال فى المعني : طلب الأكيد والناجز والحاسم . طلب القول الفصل ، وهو ما نجده فى أدبياتنا التى قد تمدح الشكل والحيرة والهامشية ، فيما لا تتواني عن إنتاج تأكيدات ويقينيات " ولو جديدة " وحقائق أيديولوجية ، وفيما يفعله أكثر من اسم فى هذا الميدان . كمحمود إسماعيل ، وحسن حنفى ، وأدونيس ، وجورج طرابيشي وغيرهم جدير بالنظر المتأمل .

جريدة " القاهرة " عدد ٤٤
٢٠٠١/٢/١٣

ثقافتنا بلا عاصمة

نحن بلا عاصمة . إذن نحن تائهون . كل عواصم العالم قرى نائية ، معتزلات ، مدارات مغلقة ، أو مفتوحة ، لا فرق ، لكننا بلا مركز ثقل ، بلا نقطة أرتكاز ، بلا محور ، بلا مقر ، كل ما نقوم به يذهب فى دوامة السيئات ، إذا نشر لنا كتاب لا نعرف هل وزعه الناشر كما توزع الكتب ، أي فى حرص ودراية وإدراك لنوعيته ، وهل أوصل النسخ اللازمة إلي النقاد ، وهل يلاحق ، ولو لفترة مبدئية ترويجه ، وهل يرصد ما كتب عنه ؟

وإذا نشرت لنا قصة أو قصيدة فى هذه المجلات أو تلك الصحف كيف لنا أن نعرف ردة الفعل حيالها ؟ وفى أي مقياس نقيس نجاحها أو فشلها ؟ خصوصاً وقعها علي القارئ العادي والمهتم اهتماماً مجرداً بالثقافة والأدب . ذلك القارئ المرتبك لشدة ما يتلقي من كل حدب وصوب ، منشورات وكتاباً وكتباً .. ما يجعله متشبثاً بقديمه المعروف . عازفاً عن الخوض فى معمعة البحث عن جديد مجهول ، فإذا خاض خبط خبط عشواء لا يفرق كثيراً عما يتخبط فيه الأدباء أنفسهم . هكذا يبدو الفضاء الإبداعي العربي أرخبيليا فى أفضل أحواله . تجمعات محلية تتقوقع علي بعضها وفى الوقت الراهن لا نستطيع القول إن واحدة من مدن العرب تلقفت دور بيروت – هذا إذا لم نلحظ بأسف وألم تحول بيروت الراهنة إلي عاصمة أخري . علي رغم استمرار حركة النشر ونذر يسير من بقايا فعالياتها الثقافية المطحونة بالواقع الاقتصادي البائس وفوضي ما بعد الحرب .

بين أواخر خمسينيات القرن الماضي وأواسط سبعينياته . حقبتان زمنيتان تولدت فيهما الإبداعات العربية التى أصبحت حجارة الزاوية للبناء الطليعي المعاصر فى الكتابة والتشكيل والمسرح والسينما ، وعلي رغم

الاشتباكات الأيديولوجية - بل ربما بفعل منها - بين بيروت والقاهرة خلال اصطدام الليبراليين بالملتزمين في منتصف وأواخر الستينيات امتد في تلك المرحلة جسر جدال حيوي بين المدينتين. اختصر الجغرافيا ووحد التاريخ واضرم نار الحياة في الجسم الثقافي العربي.

أما إذا بقي الحال علي منواله فإن ما عرف يوماً بالثقافة العربية سيتحول إلي ثقافات صغيرة مؤقلمة ومتأقلمة في محدودية العرض والطلب المحدودين ضمن أطر مغلقة ومدارات بليدة لا يؤمل منها إبداع جديد.

جريدة " القاهرة " عدد ٤٣
٦ / ٢ / ٢٠٠١

سؤال إداورد سعيد

فى رحلة له إلي القدس كأمريكي كان إداورد سعيد قد تفقَّد بيت جده وملاعب طفولته وعاد منها ليكتب جزءاً من سيرته الذاتية ، وهي كل ما تبقي له من فلسطين ، لكن أحداً ممن تابعوا - بحقد - أسئلته المطروحة علي الثقافة الغربية لم يتوقف عند هذا الجانب الإنساني من مسيرة مثقف فلسطيني ، بل أخذوا عليه أنه يتمتع بحريته الكاملة ويعيش فى الغرب لينتقده بدلا من أن يوجه نقده إلي الديكتاتوريات المسئولة عما حصل ويحصل في البلاد العربية من رعب ودمار.

وكان السؤال الذي طرح حينها أيضا لماذا لا يعود إدوارد سعيد العربي إلي البلاد العربية ، وينتقد السلطة العربية ويدافع عن الحريات العربية ، ويكتب فى الثقافة العربية . ويقضي فى الأرض العربية لكي تأخذ الحريات الغربية راحتها " والأحرار" العرب راحتهم فى هذه الحريات ؟ !

وهكذا تصبح كلمة عربي أو عربية فاعلاً مبنيا للمجهول تنسب إليه كل الأفعال ، وتحذف كلمة فلسطيني أو فلسطين ، لتبرئة الذين طردوا إدوارد سعيد من ارضه وأسكنوا فيها يهوداً من الشتات يقال إنهم طردوا منها منذ ألفي سنة وعاشوا هذه المدة شبابا أصحاء لكي يعودوا إليها ويحرروها من المحتل إدوارد سعيد .

أما لماذا يمنن إدوارد سعيد باستمتاعه بالحريات فى أمريكا ولا يمنن غيره من المثقفين العرب ، " أي عرب " فليس فى حاجة إلي شرح .. فهذه الحريات حسب " المثقفين العرب " أنفسهم تضيق بمن يسائلها ويناقشها ، خصوصاً إذا كان عربياً .

كان الاستشراق قبل كتاب إدوارد سعيد مسلمات جامدة . إذا انتقدها أحدهم ، إنما ليمدحها أو يهجوها ، وأصبح بعد كتابه علماً قابلاً للبحث

والتساؤل علي المستوي الفكري والأدبي والمؤسساتي .

والاستشراق أيضا جزء أساسي من ثقافة جديدة تطرح أسئلة صعبة علي مؤسسة عمرها مئات السنين تمارس سلطاتها بعنف بالغ ، ولن يقتصر ولم يقصتر تأثير هذا الكتاب علي الباحثين فى الثقافة الغربية ، بل امتد وسيمتد تأثيره المنهجي ليطاول مستقبلاً الثقافة العربية وغير العربية .

جريدة " القاهرة " عدد ٩٩
٥ / ٣ / ٢٠٠٢

المسئوليات قيد التجهيل

يصعب طبعاً أن نضع فأس المسئولية عن صعود التيار الأصولي في العالم العربي في رقبة طرف واحد .. مع هذا نقرأ عشرات الإشارات ، وما زلنا ، إلي دور الرئيس أنور السادات في ذلك ، لأنه شجع الإسلامين في مواجهة اليسار ، ومن دون أن نقرأ حرفاً عن مسئوليات قطاع من المثقفين ، عبَّد أكثر من طريق أمام هذا الصعود .

والكلام لا يقصد إلي تبرئة السادات ، وهو مسئول عن ذلك جزئياً وكنا شهوداً علي ذلك في المرحلة الجامعية ، كما أنه " الكلام - لا يحمل أي رغبة ثأرية وانتقامية من الأخرين الذين ناهضوه ، غير أن تحديد المسئوليات أمر لا مفر منه دائما ، كما أنه لا مفر من التمييز بين الدور الذي يلعبه عنصر إجرائي - ما دون سياسي ، وقطاعي ، ما دون مجتمعي ، كتشجيع السادات للطلاب الإسلاميين في الجامعات ، وما يلعبه عنصر سياسي ومجتمعي وثقافي في آن .

وما هو أبعد أن تعابير هذا العنصر لا تزال ، حتى اللحظة ، كثيرة وغنية ، علي رغم أن أصحابها لا يكفون عن نقد الأصولية ، وأحيانا عن التصدي لها وتلقي أذيتها ،حتى ليبدو الأمر أشبه بدراما يصنعها القدر ، ولو عاكسها الوعي وجافاها .

فإذا بات من نافل القول إن النظام المغلق هو التجربة الأصلح لنمو تلك البذرة ، جاز التعويل علي ما فعلته الناصرية ، لا في حقول السياسة والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي فقط ، بل أيضا في المسرح والسينما والكتاب وغير ذلك ، ولئن تولي انفاذ هذه المهام مثقفون ، فاللافت أن نقد النظام من قبلهم في مراحل تنافرهم معه ، لم يتجه إلي هذه العملية الدمجية نفسها ، بل انصب علي ما يمكن أن نسميه السياسات البحته ، خصوصا في العلاقات

الخارجية ، والحق أن معظم النقد " الداخلي " للناصرية كان يرتد إلي دعوة لممارسة المزيد من المركزية والرقابة الصارمتين ، باسم " ديمقراطية " توتاليتارية ما لا يعرف إلا الله كنهها .

ومثقفو اليسار لم يفعلوا هذا مع عبد الناصر وحده بل فعلو مع عبد الكريم قاسم فى العراق ، كما فعلوه لحسابهم الخاص فى ما كان يسمي اليمن الجنوبي ، حتى لا نشير إلي الكثيرين من زملائهم السوريين والعراقيين ممن خدموا البعث بصفته " حليفاً جبهويا " بين الفينة والأخري ، وبطبيعة الحال فإن المثقفين القوميين فى البلدان المذكورة لم يكونوا أقل بأسا فى الدمج والإيصاد ، وإن كانوا يستقون حججهم " النظرية " من الفتات الذي يتساقط من كتب اليساريين . وفى مصر تحديداً لم تكن السنوات الساداتية الأولي فى محاباتها الطلبة الإسلاميين أكثر تسبيبا للانتعاش الأصولي ، من المعارضة التى واجهت الساداتية فى سنواتها الأخيرة .. ففي غمرة المقاومة لكامب ديفيد وما عرف بـ " الانفتاح الاقتصادي " تم تمجيد بعض أكثر القيم تخلفا ورجعية ، وهذا ما يمكن العثور علي أدلة عنه لا حصر لها ، حيث كانت ترفع راية العداء ، للغريب عالياً باسم " الوطنية " و " التراث الوطني " وتطلق نزعة العزلة والضيق إلي أقصاها ، فى ظل شعار " الاقتصاد المنتج " لا المستهلك . وبغض النظر عن المسائل الأيديولوجية ، وتلك المتصلة بالوحدة الوطنية بمصلحة تعويل أحادي واقتصادي علي " التنمية " وفى غصون انتكاس كهذا . بتنا نقرأ مراجعة " ماركسية " لهنري كورييل لا يتعفف صاحبها المتبرئ من كورييل عن تنكب اللاسامية . أو نسمع أصواتاً طليعية تغني . وتتغني بالقيم العامية التى أطلقها أحمد فؤاد نجم عن " فاليري جيسكار ديستان " و " بتاع الروتوجيت " ناهيك عن قيم مظفر النواب الذي لم يشتهر بشئ كما اشتهر بـ " أبناء القحبة " .

ويبقي لبنان معياراً هو الآخر وملائماً لقياس زراعة الريح وحصاد العواصف و " الطائفية الإيجابية " بحسب وصف شهير للأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني انذاك جورج حاوي " وهو يقصد بالطائفية الإسلامية ،

مقارنة بالطائفية المسيحية " السلبية " وحدها ما لبثت أن حبلت بالشيخين سعيد شعبان " ت " ومحمد حسين فضل الله . وهما بدورهما انجبا جيلا يعرف اللبنانيون جيدا ، انجازاته ، باستثناء الراحلين المسكينين حسين مروة وحسن حمدان ، اللذين رحلا وهما لا يعرفان السبب .

جريدة " القاهرة "
٢٧ / ١١ / ٢٠٠١

حافة النسيان

كان السؤال العربي حتى الأمس القريب كيف نرفض ، كيف نقاوم ، كيف نلحق بركب الحضارة ؟

الآن أصبح ، كيف نقبل ، كيف نتدجن ، كيف نركب قطار العم سام ؟

أيها العم سام .. أنا ، الكاتب العربي المسكون منذ ولادة وعيي بهموم العدالة والتحرر .. أرجوك ناولني بطاقة سفر لأصعد إلي قطارك السعيد ، تعبت .. مع أنني لا رشقت حجارة ولا اعتصمت ولا ركلني شرطي علي رصيف، ولا دخلت السجن من أجل كلمة ، ولا تخليت عن راتبي للجائعين والمحرومين والأسري . بل كتبت الكثير من خطابات التحية لكل الواردة اسماؤهم وآلامهم أعلاه ، من كل مكان رحلت إليه ، من بيروت إلي الشام إلي صنعاء إلي بغداد إلي مكناس ، ومزجت كلمات " الهدير الثورى " بكلمات الشبق . فالحب والحرب عندى سواسية ، كذلك الموت فى زلزال أو الاستشهاد فى معركة ، كله عندي ، أنا الكاتب العربي صابونا صالحا للاستهلاك ، وحلال علي خسارة الأرض وما عليها ما دامت حطباً لموقدي ، وإلهاماً لقصائدي وقصصى ، ومحركاً لإبداعي الذي يجمع القدود والبارود فى باقة واحدة .

صحيح لم يرني أحد أقود تظاهرة أو أهرع إلي منزل ثكلي أو إجابه ترساً أو هراوة ، ولا حملت إلي المقاهى عريضة تندد بظلم ، فهذه " المسائل للصعاليك والموتورين والمتورطين سياسيا ، وأنا فوق السياسة ، أصابعي أثمن من أن تمسك عصا ، يداي أجمل من أن توضع فى أصفاد .

أيها العم سام ، سممني كي أموت وأولد من جديد بين ذراعيك .. أمتي لا تستحقني ، كتبت عن أوجاعها وأوضاعها ، حرضت وانتقدت وشتمت وصرخت ومزقت أطناناً من الورق ونشرت أطناناً مماثلة ، لكنهم لا يسمعون

، وأجيالهم الطالعة تفضل ما يكل جاكسون عليّ.

هل كان المطلوب مني التصرف كالبائع الجوال فأزور المدارس والمعاهد والمستشفيات والسجون والجامعات وأحاور العوام كما يفعل السياسيون مرغمين فى بلاد الحريات الجميلة ، خصوصاً بلادك العزيزة أيها العم العزيز؟

وماذا لو أصابتني الأمراض السارية ؟ لو عطس أحدهم فى وجهي ، أو لو قررت إحدي الأمهات أن تناولني طفلها اللزج كي أباركه والفحه بأنفاسي المبدعة ؟ ألا يكفي أنني أراهم علي شاشة " سي . إن إن " وأتأثر لما يواجهونه ويعانون منه ، حتى أنني أبكي فتقطر الدموع فى كأسي وأسهر صادحاً بالشعر حتى الصباح .. ولا يسمعون ؟

إن شاء الله عمرهم ماسمعوا .. أعطني يدك أيها العم سام ، وارفعني إلي قطارك .. إلي حافة النسيان .

جريدة " القاهرة " عدد ٦١
٢٠٠١/٦/١٢

الدفاع عن الذات يبدأ بالدفاع عن الآخر

عندما يطول الأمد بدولة مضطربة تلقي تبعات هذا الاضطراب علي إنسانية المواطن ، فلا تختل علاقته بها فقط ، بل يلحق الخلل أيضا المفاهيم التى يحملها المواطن عن نفسه وعن علاقته بها وبالمجتمع ، ففي المجتمع الناكص حضارياً وروحياً تصبح رغبة " تأكيد الذات " عند الإنسان مضاعفة، إذ تغيب المتع الإنسانية ، وتنقلب ضد سويتها بسبب طول هذا الغياب ، ويصبح للشعور بالضياع والهامشية وتيرة منتجة أعلي دائما لتزيد من الإشكاليات فى عمق إنسانية هذا الإنسان ، إلا أن أسوأ نتيجة تقدمها لنا حالة الخذلان هذه ، هي شعور المواطن بأن الآخرين مسئولون عن خذلانه ، متناسياً أنهم ضحايا الحالة نفسها ،وهذاالشعور بالغيظ وربما الحقد علي الآخرين يتحول بالتدرج والتراكم إلي ثقافة وتقاليد ، تنتج بدورها نزعة المنافسة غير العادلة بين المواطنين عموماً ،منافسة ربما وصلت أحياناً إلي الرغبة بسرقة الآخر أو تشويه سمعته أو التخلص منه نهائياً ، وإذا عممت الدولة في تلك اللحظة اضطرابها علي المجتمع ، وأصبحت هذه الحالة قاسماً مشتركاً بين أكثرية الناس فى أي بلد ، ستجعل الإنسان ضمناً يفتش عن وسائل حماية ودفاع ، فهو بقدر ما يشعر بأنه تعرض لاعتداء محتمل من جهة ، ربما استطاع تحديدها أو لم يستطع ، وسواء كان هذا الاعتداء يخص مكانته أو مصد ررزقه ، تتولد لديه رغبة خفية أو علنية ، ضد من يظن أنه مصدر الاعتداء المحتمل أوالواقع فعلاً .

من هنا تأتي مسألة تبادل الأدوار بين الضحية والجلاد داخل الذات الواحدة ، وتحت وطأة هاجس البحث عن حماية سرعان ما يتهيأ المرء للالتحاق بأقرب تجمع يوفر له مثل تلك الحماية ، وإذا تجاوزنا جاذبية التشبث بالعشيرة بحكم طغيان حالة التمدن علي ثقافة الريف وتقاليده ،

نجد أن عملية التحاق المواطنين مثلا بحزب ما ، كثيراً ما تأتي مدفوعة بالحاجة إلي الحماية وتأكيد الذات أكثر من الدفاع السياسي الواعي والمدروس . كان نشوء الأحزاب استناداً إلي حاجات مادية ومعنوية وبالتالي فإن بالإمكان إدراك الرغبة بالحماية وتأكيد الذات ضمن ذلك . ولكن يحدث أحياناً أن يتم الانتماء في لحظة خلل بعيدة عن الانتماء الحر والواعي ، وفي هذه الحالة سرعان ما تتماهي الذات الباحثة عن تأكيد وحماية في فضاء الهيئة التنظيمية وماتمثله من نزوع سياسي وأيديويولجي ، وهذه الهيئة بحكم اختلال الحالة الاجتماعية عموماً ، لن تكون أكثر من مناخ تترعرع فيه نرجسيات الأفراد ضمن نرجسية جماعية غالباً ما يذهب ضحيتها الأفراد أنفسهم من دون أن يشعروا بمثل هذا الضياع بسبب حالة التماهي المغمورين فيها ، الأمر الذي يجعل عملية تأكيد الذات مقلوبة علي رأسها ، فهي حالة استلاب ليس إلا ، ونجد الوجه الآخر لهذه الإشكالية في حالة الاحتقان النفسي الذي يميز الكثير من الشخصيات الحزبية كأقرب وأوضح مثال ، تلك التي تضيق ذرعاً بالطرف الآخر المغاير أو المختلف ، ظناً منها بأن تلك الأطراف تهدد فرصتها بتأكيد الذات ،وهنا تنقلب المنافسة إلي نوع من الذعر ، الذي يبرر في العادة نوازع كراهية الآخر والرغبة بإفنائه ، والمشكلة الحقيقية لا تكمن في ارتكاب التجاوزات فقط بل في اعتقاد الشخص أو الجهة المعنية ، بأن ما ترتكبه في حق الآخرين ليس جريمة وإنما حق مشروع ووسيلة دفاع ، وطبيعي أنه عندما يتوفر شعور تدمير كهذا عند طرف إزاء الآخر ، فإن الأزمة تصبح أكبر من القدرة علي حلها .

إن التقاليد المقيمة ، بقدر ما اصبحت حالة نشازفي الحياة نجد من يدعوا إلي تكريسها ، بالقول والممارسة مبرراً ترسيخها ، بل واعتبارها هي الحالة المثلي للمحافظة علي النقاء الحزبي أوالطائفي . لذلك تشكلت لدينا ظواهر كثيرة من دعاة للحرية يعادونها ويخافون منها .

ولم يعد أحد يشعر بأن مثل هذه التوجيهات تجعل من الذات الراغبين تأكيدها ، أولي ضحاياها ، واستناداً لما تقدم فإن الدفاع الحقيقي عن الذات

لا يمكن أن يبدأ إلا من خلال الدفاع عن الآخر المغايروا لمختلف من أجل إلزامه بموقف مماثل - موقف أخلاقي يتكرس بالسلوك والتراكم ، ومن خلال إلغاء حالة الذعر من وجود الآخر وحقوقه ، في معادلة الصراع الاجتماعية التي لا يمكن أن تستمر وتتطور نحو الأفضل بطرف واحد ، لأن الصراعات الاجتماعية في كل بلدان العالم لا تنتهي ، بل تتطور إما للصالح العام أو ضد الجميع .

جريدة " القاهرة " عدد ٣٧
٢٦/١٢ / ٢٠٠٠

مواسم الرحيل قهرا

فى عصر السماوات المفتوحة يتاح للمرء الاطلاع عن كثب علي كل مجريات الأمور الحياتية مختلفة الأوجه وفي أي مكان من بقاع المعمورة ، وربما فى غالب الأشياء تكوين رؤية ما عما يحدث ، وفى إحدي المحطات الفضائية شاهدت حوارا ما كان له ليمر هكذا دون أن يترك علامات استفهام من الحجم الكبير . حينما انتفض الصحافى الغربي لما جاوبه ذلك الطفل الألباني الجالس قبالته ، حيوي العينين ، نشط الحركات ، ذكي الابتسامة ، فقد وجه الصحافى إلي ذلك الصبي سؤالاً من ذلك النوع الذي ما انفك كل كبار الأرض يطرحونه علي صغارها كلهم وفى جميع الربوع ! " ماذا تريد أن تكون عندما تصبح كبيرا ؟ " " أريد أن أكون لاجئاً " بادره الصبي من دون أدني تردد مديرا ظهره إلي رائد الفضاء والي الكاوبوي وإلي جيمس بوند وأنديانا جونز وإلي رئيس محطة القطار وإلي كل من عداهم من الشخصيات وأبطال المهن التى درجت علي دغدغة المخيلات الغضة فى كل مكان .

اللجوء إذا أصبح قيمة ايجابية ومشروع مستقبل . أو لنقل حلم مستقبل فى بعض البلدان وفى نظر بعض أبنائها .

من الشاق علي المرء أن يهاجر ، أن يخترق ذلك الجدار السميك من الحواجز الجغرافية ومن الإجراءات الأمنية التى تؤدي بالحياة أحياناً ، ومن القوانين الرادعة وماتفننت البيروقراطيات فى وضعه من عراقيل ، ومن ذلك الرفض الحاقد . القاتل أحيانا لدي سكان بلاد الرفاه المنشود . غير أن ذلك كله وهو معلوم تتناقله وسائل الإعلام وتسهب ، لا يثني أعدادا متزايدة من أبناء جنوب الأرض ، ومنذ بضعة أعوام الشرق الأوروبي . عن مغامرة الرحيل مهما كلفت ، لقد قرأنا جميعاً عن أولئك الألبان الذين أقلتهم سفن بكاملها إلي شواطئ إيطاليا القريبة قبل أن تردهم سلطات هذا البلد علي أعقابهم

خائبين ، كما سبق لنا أن قرأنا قبل ذلك عمن أطلق عليهم أسم " الظهور المبللة " أولئك الذين كانوا يقطعون نهر، الريجراندي سباحة بين المكسيك والولايات المتحدة وكلهم أمل فى أن يتمكنوا من الدخول إلي جنة الاستهلاك من دون أن تتنبه إليهم دوريات رجال الأمن وكلابها المدربة . كما قرأنا أيضاعن نظرائهم الأفارقة . أولئك الذين يفدون من كل فج عميق فى القارة السوداء ليتجمعوا فى مدينة طنجة المغربية علهم يبلغون الساحل الأسباني المقابل بأية وسائل كانت . فيعثر المصطافون من وقت لآخر علي جثث من لم تلتهمه أسماك البحر منهم ، ذلك غيض من فيض ، وذلك ما يحلم أن يكونه هذا الصبي الألباني ومثله كثيرون من كل أرجاء العالم ، حتى أن بعض البلدان قد يفرغ من سكانه لو فتحت فى وجوههم أبواب الاغتراب . لماذا هذا التوق إلي الهجرة واللجوء ، والأرض علي رحابتها فى زمن الاقتصاد الكوني هذا لم تعد تتسع للراحلين ؟ لم ذلك والهجرة لم تعد تحمل سمات الرومنطيقية ووعود النجاح التى كانت لها فى السابق ، تلك التى صورها مثلاً " ايليا كازان " فى فيلمه " أمريكا أمريكا " حيث ترى شابا مسيحيا يغادر شرق الاستبداد العثماني ، ويقبل ، علي متن السفينة التى كانت تقله علي " لونج ايلند " و " خليج هدسون " و " تمثال الحرية " وكلها ترسل إليه إشارات مستقبل يعد بالحرية وبالرفاه فى ملاذ معذبي الأرض الأمريكي ؟ هل هى الأوضاع الاقتصادية وقسوتها فى بعض البلدان . تدفع بالناس دفعا إلي المغامرة ؟ ذلك هو الوازع الذي يقدم عادة علي أنه محرك الهجرة واللجوء ، وهو لاشك صحيح ، ولكن الوافدين إلي الغرب كلهم لا يأتون إلي الغرب من بلاد تفتك بها المجاعات بل كذلك من مناطق ، وإن كانت حالتها الاقتصادية سيئة . فعلي الأقل ليس فى تلك الدرجة التى تجعل البعض يفضل مواجهة الموت واحتمالاته علي طريق المغامرة علي البقاء بين أهله .

الهجرة توق قديم عند البشرية ربما كان هاجسها من أجل ارتياد الأفضل أكثر من مجرد طلب القوت ، لذلك تخلو ميثولوجيات الإنسان القديم والحديث ، من الحلم بوجود حيز علي وجه الأرض فى مكان ما يجب

اكتشافه والسعي إليه ، هو بمثابة الجنة ، قدامي البابليين كانوا يتصورونه فى دلون " البحرين حاليا " وكولومبس عندما غرب فى سنة ١٤٩٢ ليكتشف ما عرف فيما بعد بأمريكا ، كتب فى مذاكراته ما يوحي صراحة أنه إنما كان علي طريق " الجنة الأرضية " تلك التى تصورت مسيحية ذلك الزمن وجودها فى موقع ما من المعمورة قد يكون خلف بحر الظلمات ، وفى الستينيات من هذا القرن كتب مؤرخ الديانات الروماني الكبير " مرسيا ايلياد " مقالاً فى إحدي المجلات المتخصصة أشار فيه إلي أن مجموعة تنتمي إلي قبائل الغوارقي الهندية الحمراء كانت فى ذلك التاريخ تذرع القارة الأمريكية الجنوبية فى جميع الاتجاهات بحثاً عن تلك " الجنة الأرضية " الموعودة نفسها ، والأغرب من ذلك يقول إيلياد : إن بعضا ممن رافقوا الفاتح الأسباني " كورتيس " إلي تلك المناطق قبل خمسة قرون ، ألتقوا أجداد هؤلاء وكتبوا عنهم مشيرين إلي أنهم كانوا يسعون وراء الهدف نفسه خمسة قرون علي الأقل ، وتلك القبيلة الهندية البدائية التعيسة تغترب فى مناكب الأرض بحثاً عن الجنة .. وقس علي ذلك من كثير الأمثلة .

خرافة كل ذلك ؟ .. بالتأكيد ، ولكن يجب حمل الخرافة علي محمل الجد عندما تكون وازعاً بهذه القوة ، يدفع الناس إلي تجشم الصعاب حتي المخاطرة بالحياة ، بل حتي الموت ، لا الاكتفاء بالاستخفاف باسم عقلانية مبتذلة سيطرت علي الأذهان طويلاً غرب الاستهلاك ربما التمع فى أعين ومخيلات الكثيرين " جنة موعودة " من قبيل ما ذكرنا . شديدة الجاذبية لا يندفع معها لا التنديد بانحلال مجتمعاتها ولا التذكر بحقدها الأبدي علينا . بل فقط جعل مجتماعتنا يطيب العيش فيها ليس فحسب من الناحية الاقتصادية ولكن كل ذلك من خلال إرساء مناخ سياسي وثقافي وإنساني يتسع للفرد وأحلامه ، ذلك أن الهجرة إدانة موجهة إلي البلدان الأصلية أكثر ما هي مسلفة علي عنصرية المستقبل ، بل هي أقسي أنواع الإدانة واكثرها جذرية ، إذ لم يتضح إفلاس الأنظمة الشيوعية السابقة بكل جلاء إلا عندما هرع عشرات الآلاف من محكوميهم بالقطارات والسفن وقوافل السيارات نحو

مدن الغرب هرباً من واقعهم الرمادي والكئيب .

وجه اللاجئ المهاجر هو واحد من عناوين الحقب السابقة وأحد المشاغل الكبرى لهذه الحقبة ، وهو سيصاحبنا طويلا فى مستقبلنا المنظور ، ونحن نري أبناء الجنوب يمعنون فى طلب الرحيل ، ودول الرخاء الشمالي تمعن فى إغلاق حدودها . لذلك فهو يستوجب منا تفكيرا ليس ما سبق إلا نذراً يسيراً جداً مما يمكن أن يقال حوله وفيه .

جريدة " القدس العربى "

١٤ / ١ / ٢٠٠٠

وراثة العبودية

كانت كلمة التابع ، قبل الحرب العالمية الثانية ، تدل علي سكان العالم غير الغربي الذين تمكن الأوروبين من إخضاعهم لسيطرتهم واحتلال أراضيهم " إدوارد سعيد " وتبدو هذه الكلمة مرادفاً لكلمة عبد التى سادت قروناً من الزمن ، خاصة فى عصر الامبراطوريات الكبري ، فالتابع ، مثله مثل العبد ، يتنازل طوعاً أو بالإكراه ، عن حقوقه لسيده ، وترتبط نشاطاته كافة بمصلحة السيد الذي يخطط ويأمر بالتنفيذ ، ويقطر هذه النشاطات حسبما تقتضيه شروط المنافسة مع سيد آخر يشترك معه فى صياغة العالم ، وإدارة التابعين .

وإذا عرفنا علي سبيل المثال ، قبل الحرب العالمية الثانية وما بعدها بقليل ، دولاً سميت حسب هوية المستعمر ، كالكونغو البلجيكي ،أو الكونغو الفرنسي ، فإن هذه التسميات علي الرغم مما تحمله من ازدواجية ، تدل بشكل قاطع علي هوية أرض (بلجيكية أو فرنسية) يقطنها تابعون أو عبيد لا هوية لهم ، وكذلك أصبحت الجزائر الفرنسية أيضا ، أرضا لا علاقة للجزائريين فيها ، فهم مجرد تابعين تعرف هويتهم بهوية سيدهم وهكذا أصبحت فلسطين إسرائيل ، فالسيد المنتصر اختار لها تسمية توارتية ولم يعترف بوجود شعبها ولا بتاريخه ، أما من يقيم علي هذه الأرض من خارج الأسياد ، فهو تابع أو عربي إسرائيلي ، وفى أحسن الأحوال فلسطيني من العام ١٩٤٨ أو من فلسطيني العام ١٩٦٧ ولأن هذه التسمية تعني ، فيما تعنيه، محو هوية شعوب والقضاء علي تاريخها ، وبعضها عريق جدا ، لذا كانت هذه الشعوب تلجأ إلي الماضي ، إلي تاريخها ، لأن فيه صورة عن نفسها تناقض مفهوم التابع أو العبد . فالأساطير الإفريقية تصور أصحابها أسيادا متالفين مع أنفسهم ومع طبيعتهم وأحرارا لهم حق التصرف فى أرضهم ، وفى تواريخ الشعوب المسلمة والمسيحية تصور للقيم وللمعرفة هو فى أصول تصور

المستعمر له .

علي المستوي الثقافي ، تشكلت طبقة من التابعين قدر لها ، بعد الاستقلال أن تكون فى مركز السلطة ، فأعادت بعض التسميات القديمة ، أي أصبح الكونغو معروفاً لذاته ولم يعد فى حاجة إلي إضافة كلمة بلجيكي أو فرنسي إليه ، وأصبحت الجزائر أيضا معروفة بنفسها ، غير أن عقلية التابع والسيد ، بقيت متحكمة بالطبقة السياسية التى تولت السلطة ، وبقيت الهوة بينها وبين مواطنيها تتسع ، فهم بالنسبة إليها تابعون أيضا ، هى تخطط وهو ينفذون تماما كما كانت حالهم فى مرحلة الاستعمار ، لذا لجأوا إلي التاريخ ، وأصبحت عبارة العودة إلي الماضي ذات وقع سحرى تعني عندهم التحرر من التبعية ، من دون أن يجرؤ أحد من الداعين علي دراسة هذا الماضى ، فهو فضلا عن عدم إمكان العودة إليه لم يكن فى كل مراحله أفضل من الحاضر ولا أبهي .

والحق أن الطبقة السياسية التى تولت السلطة بعد الاستعمار ، أفرزت بدورها نمطاً من التابعين ، لا يتركون مناسبة إلا ويدعون فيها إلي العودة أيضا ، ولكن إلي الماضي القريب ، إلي عصر الاستعمار الذهبي ، حين كان يسود الأمن والتسامح .

إنها عقلية التابع تشكلت عبر قرون من الزمن وورثت العبودية وهاهي تعيد إنتاجها بأحدث آلات التكنولوجيا .

جريدة " العرب "
٢٠٠٢/٣/٢٤

ملح الرجولة

كلما اتصلت به قال الأمور العالقة علي قاب قوسين أو أدني من الفرج ، وأضاف أنه " ممسك بزمام الأمور المذكورة ولاحاجة لي أن أشغل بالي ما دمت موجوداً فى هذه الدنيا " صوته هادئ مطمئن ، يهمس من القلب إلي القلب فيشق علي أن أصيح به ، بل تندثر أمواج سخطى وتبرمي ، أقول له بالله عليك ، عافاك الله ، رحم والديك ، صارحني ، قل لي الحقيقة كما هي فأعرف كيف اتصرف ، يجيبني أن كل شئ علي ما يرام ، لكن التأخير سببه سوء الإدارة " وأنت تعرف كيف تحصل الأشياء هنا " فأتصور أن " الأشياء " لا تحصل هناك كما أتصور وأحاول أن أتصورها علني أفهم فأستريح وربما يرتاح أيضا صاحبي من هواتفي المتلاحقة ، غير أنني لا أري غير مواطنين يروحون ويجيئون من مكتب إلي مكتب ، يشربون القهوة والشاى ويدخنون بكثافة جنونية كأنهم عملاء سريون لشركات الدخان .

لماذا نتكاذب ؟ نرفض بإصرار وتصميم وعناد التعامل مع الحقيقة ؟ يعتبر واحدنا أنه علي حق فى باطله ويجهد بكل ما أوتي من قوي ذهنية ونفسية لأدلجة وتوضيب الحقيقة المغايرة للواقع وجعلها غطاء لتقصيره وتوانيه وخطئه ؟ لماذا يكذب السياسي باسم المصلحة الوطنية والمعلم باسم المعرفة ورجل الدين باسم الماورا والجندي باسم البطولة ، والأب باسم العائلة والعاشق باسم الحب ؟ وكم يكذب التاجر باسم الربح والغنيمة ؟

أتكون الحقيقة - حقيقتنا الكبري التى نستمد منها حقائق ذواتنا غير جديرة بالعلن والخروج إلي ضوء الشمس ولذا ترانا نهرع إلي ترميمها وترقيعها وتسويقها وتزيينها وتعظيمها وتحريفها ونكرانها أم نستنبط للواقع أوهاماً مبتكرة بسبب ضحالة حياتنا وفقرنا واستحلامنا وارتباكنا وتوقنا المحيط إلي ألق الاثارة ؟

وربما علينا التفتيش عن جذور نفاقنا اليومي فى طبيعة الطوية والباطنية وقراءة الغدر في ميراثنا ، حتي أمثالنا الشعبية ، عصارة تجربتنا المتراكمة عبر العصور نستطيع بوقاحة فادحة أن نجد الكذب كونه ملح الرجولة ، ولعله أيضا عسل النساء وحليب الأطفال وعلف الماشية .

تناولت الهاتف وكلمت صاحبي الآنف الذكر ، قلت بالله عليك عافاك الله ، نحن أخوة ، وما بيننا تكلفة ، صارحني ، قل لي : والله لا أستطيع شيئا ، أعدك أنني لن أسمح لنفسي بلومك ولن أحبك أقل : أم هكذا نبقي ؟ أخاف أن أكرهك فأكره نفسي لأننى خسرتك من أجل بعض الأمور العالقة .

ما زلت أنتظر جوابه بل سمعت أنه مات بنزيف مفاجئ فى ملح الرجولة .

جريدة " القاهرة " عدد ٧١

٢١/٨/٢٠٠٠

حسرة علي لغة .. وأدب يضيع !

ما من منفي أشد قسوة من منفي اللغة ، وما حكاية كتاب المغرب العربي من أبناء الأجيال التى عاشت أواسط القرن العشرين سوي تأكيد علي هذا الواقع ، لأن كبارهم من محمد ديب إلي كاتب ياسين ، ومن محمد خير الدين وطاهر بن جلون إلي رشيد ميمون ورشيد بوجورة وأسيا جبار ، وقبلهم جميعا مولود فرعون ومالك حداد ثم إدريس الشريبي ، أحسوا فى لحظة أو أخرى هذا المنفي ، وإن بدرجات متفاوته بالطبع .

ما من شك أن واحدا عظيماً مثل كاتب ياسين الذي رحل فى عام ١٩٨٩ كان من أكثرهم إحساساً بهذا المنفي العسير " المنفي الذي لا برء منه " علي حد تعبير واحد من المؤرخين الذين تناولوا هذا الأمر .

كل هؤلا وكاتب ياسين فى مقدمتهم كتبوا باللغة الفرنسية ، أي بلغة البلد الذي كان يستعمر بلدهم ، وبالتالي باللغة التى كانت لغة المحتل . لا لغة الناس الذين يفترض بالكتابات أن تكون موجهة إليهم أصلا ، لكنهم - بالنسبة إلي معظمهم علي أي حال - لم يختاروا الكتابة بغير العربية عن تعمد، بل لأن المحتل كان قد جعل استخدام لغته عنواناً لاستيلائه علي حاضر الناس ومحو تاريخهم وهويتهم ، ومن هنا ما حدث حين استولي الكتاب بدورهم علي لغة المحتل واستوعبوها ، وأبدعوا فيها أعمالاً تصدت لاحتلاله وساهمت إلي حد ما فى تخليص ديارهم من ذلك الاحتلال .. فهل ينكر أحد الدور الذي لعبته كتابات محمد ديب ومالك حداد فى بعث النزعة الوطنية في الجزائر .. وهل يمكن لأحد أن يغفل ، خاصة دور كتاب مثل " نجمة " في رفد الثورة الجزائرية بمضمونها الإبداعي ، حتى ولو لم يكن العمل سياسياً مباشرا !

"نجمه " هي بالتحديد الرواية الكبري التى وضعها كاتب ياسين أيام

كانت الثورة الجزائرية تتأجج ، وضعها ليرمز من خلالها إلي الجزائر نفسها ، وإن كان استعار في رمزيته تلك الذكري الحقيقية لابنة عم له أغرم بها صبياً تدعي " نجمة " لقد نشر كاتب ياسين "نجمة " المكتوبة بالفرنسية في ١٩٥٦ وهي عرفت كيف تسجل نقطة انعطاف في رواية شمال افريقيا .

ولكن كاتب ياسين حين نشرها لم يكن مطلاً جديداً علي عالم الكتابة فهو - كشاعر - كان قد نشر مجموعته الأولي في عام ١٩٤٧ وكان بعد في الثالثة عشرة من عمره ، فهو من مواليد قسنطينة في ١٩٢٩ لأب كان موسراً ويعمل في القضاء ، ودرس في المدرسة القرآنية أولا ثم ارتاد المدرسة الفرنسية - لكنه منذ أواسط الأربعينيات بدأ نشاطة السياسي ولا سيما عبر مشاركته في تظاهرات ٨ مايو ١٩٤٥ الشهيرة في مدينة سطيف مما أدي إلي طرده من المدرسة الثانوية ، فقرر أن يترك المدرسة ويتفرغ للنضال السياسي والعمل الأدبي ، وفي العام ١٩٤٧ ألقي محاضرة في باريس حول نضال عبد القادر في سبيل استقلال الجزائر ، وانضم إلي الحزب الشيوعي الجزائري ، وبدأ العمل في الصحافة .

أقام ياسين اعتباراً من العام ١٩٥١ في فرنسا ، حيث مارس شتي المهن وكتب الشعر ، وكان يرتحل في طول أوروبا وعرضها مناديا باستقلال الجزائر ، وقد تعرف عليه القراء الفرنسيون خاصة من خلال قصيدة "نجمة " التي نشرها في مجلة " مركوردي فرانس " قبل أن يحولها إلي رواية أضفت عليها شهرة كبيرة اعتباراً من ١٩٥٦ ، ليس فقط بسبب موضوعها ، بل كذلك بسبب بنائها الشكلي المحدد ، حيث تختلط فيها الصور بالسرد ، والواقع بالحلم ، وعنف اللفظ بقوة الرمز .

حول هذه الرواية قال كاتب ياسين لاحقا " لقد أردت أن أعطي من خلالها صورة للجزائر من خلال صورة المرأة فيها " بعد " نجمة " كتب كاتب ياسين كثيراً ، طوَّر نجمة نفسها في " النجمة المشعة " ١٩٦٦ وخاض الكتابة للمسرح ، خاصة كوسيلة تمكنه من التعبيرعن قضايا العصر " حرب فيتنام - حرب الجزائر - القضية الفلسطينية " وتقربه من العمال الجزائريين

والمغاربة فى فرنسا ، لذلك تراه كتب سلسلة من المسرحيات مثل " حلقة الانتقامات " ١٩٥٩ و " الرجل ذو الصندل المطاط " ١٩٧٠ .

فى ١٩٧٢ انتقل كاتب ياسين إلي الجزائر نهائيا حيث أقام ، وراح يكتب ويخرج مسرحيات باللهجة الجزائرية المحلية محاولا من خلالها أن يصل إلي جمهور شعبي عريض ، وأن " يحاول إصلاح الثورة الجزائرية من داخلها " علي حد تعبيره .. لكنه رحل فى العام ١٩٨٩ وهو فى الستين من عمره - بعد أن كرم خلال سنوات حياته الأخيرة علي مستوي عالمي - رحل فى قلبه حسرتان أولاهما أنه كتب أجمل أعماله بلغة غير لغته الأم - وثانيهما أن كل أدبه وكل أدب الجزائريين المخلصين الأخرين لم يتمكن من أن يخلص الجزائر من مصيرها الذي كانت تسير نحوه بسرعة ، وهو الذي كان قد ساهم قبل ذلك فى تخليصها من الاحتلال .

جريدة " القاهرة " عدد ٥٩
٢٠٠١/٥/٢٩

الترقيع الفكري

فى واحد من المهرجانات الثقافية التى شاركت فيها منذ فترة قريبة ، والتى يحتشد فيا أهل الفكر ، والمحسوبون عليه ، وأهل الصحافة ، والمحسوبون عليها ، والعاملون فى مجالات الثقافة ، بالإضافة إلي المثقفين الكبار ، والمثقفين الطالعين ، والمثقفين المبتدئين ، وأنصاف المثقفين وأرباعهم وأثمانهم .. إلخ ، وكان ذلك فى مدينة عربية ذات حضور قوي فى التراث العربي . وفاعلية مهمة فى الراهن الثقافى العربي ، فى هذا المهرجان ، قررت زميلة عربية فاتكة التخفيف عنا بعض الشئ من ضجر يصيبنا ، ومساعدتنا علي احتمال صخب غير مجد ، وخطابات بطولة مزيفة ، والحر الذي ينزع عن المرء - مهما كانت قدرة أو رتبته أو مكانته من الهرم الثقافي - كل طوق أو رغبة فى الخروج من الفندق أو فى بذل أي جهد .

أشارت الزميلة الفاتكة بيدها إلي شاب فى غاية اللطف والتأنق والتهذيب ، وتبرز من ابتسامته التى لا تروح أبداً كل ثقة بالنفس أو النجاح ، وقالت : هذا الصحفي ، وشدت عي كلمة " الصحفى " هذا الإنسان فى كل عرس له قرص ! حاضر فى كل احتفالية وتظاهرة ، ويكتب فى كل المجالات الفنية والأدبية دون حرج ، لا بل إنه يعتبر حاله من كبار رجال الصحافة جنباً ، ومن كبار المثقفين القوميين جنباً آخر ، وقيل إنه كان من مروجي أفكار التيار الإسلامي فى بدايته بدعوى " إشكالية التنوير فى الفكر الإسلامي " هكذا يزعم ، لكن هذا الزميل الثمين ، تابعت ، هو ملك الطفيليين، مستواه الثقافي لا يخوله دخول التكميلية فى مدرسة تحترم نفسها ، هل تعرف يا صديقي كيف تعلم هذا الـ.. الأشياء التى يكتبها ، سألتني :

- كيف ؟ أجبتها مشدوداً أكثر لإيقاع كلماتها .

- علي السماع ، فهو ينقل كل ما يسمعه كيفما أتفق ودون تنقيح أو

إعادة نظر، يكفي أن يجلس ويسمع ما يدور من نقاشات، ومن حفظ عناوين مؤلفات تحظي برواج فكري ، واسماء مؤلفين مرموقين ، تنتفض إن إصابك خمول حين تسمع بهم ، ومع العلم أن ليس له أية علاقة وإن هامشية مع مفكرين ومثقفين أو نصف مشهورين .

وأمام استنكاري الحاد ، وتشكيكي ودعوتي إلي احترام الزملا ازدادت الزميلة العابثة سخرية وتهكما ، ودعتني إلي مشاركتها الموقف المسرحي التالي .. " نستغل وجوده معنا ، فنرتجل نقاشاً مطولاً ، حاد النبرة ، عميقها ، فى مجال فكري رصين من الذي يتشدق بالتفوه ببعض مصطلحاته . فقط نتسلي فيه بتزويرا لمعلومات وتلفيق الحقائق والمعطيات البديهية التى تدخل فى نطاق الثقافة العامة لدي أي طالب فى سنته الجامعية الأولي .

هكذا ، استدرجتني هذه الزميلة " المسكونة " إلي لعبتها الشيطانية ، فصرت شريكا فى اللعبة ، ورحنا نقتنص اللحظات المواتية كي نمضي فى جدل فكري عميق ، انقلبت فيه العناصر راساًعلي عقب بعبثية جديرة بأكثر مسرحيات يونسكو هذيانا ، فأصبح أرسطو صاحب كتاب " الأمير " وأبرز فلاسفة القرون الوسطي علي خلاف حاد مع السفسطائيين فى روما ، هذه المدرسة المنحدرة من الماركسية ، وقس علي ذلك كثيراً .

ولن تفاجأعزيزي القارئ حين تعلم كيف تصرف زميلنا هذا ، بأي تركيز وبأي رصانة ، مبديا تحفظه علي بعض من التطرف عند أحدنا ،ومصححاً معلومة تاريخية غير دقيقة عند الآخر ، إلي أن وضعت نوبة ضحكاتنا الجنونية حداً لهذا النقاش المفتوح علي متاهات الكون .

يسهل طبعا الكلام عن الآخرين ، واتهامهم بالأمية والجهل والادعاء ، وفقدان الرؤية ، كواحد أعطي رأيا خلاصياً فى واحد من كتبي لمجرد سماعه نتفاً من مقدمة هذا الكتاب ألقاها علي سمعه صديق مهتم بما جاء به ، ولم يقرأ هو حرفاً واحداً منه .

ما أردنا قوله إن فى كل منا جانباً ولو بسيطاً من شخصية هذا الزميل

السعيد الذكر، الذي تمتلئ بأمثاله حياتنا الثقافية ومنابرنا ومؤسساتنا ، في زمن باتت فيه المعرفة نسخة عن نسخة عن ترجمة عن مقالة باهتة هي انعكاس بعيد لجانب من مسألة نظرية ما ، أتية هذا المرة من الغرب البعيد ، أو من زمن سعيد كان الناس عندنا يعرفون فيه ماذا يكتبون ويقرأون ، وهم يكتبون ويقرأون .

هذا هو " الوعي التقريبي " في زمن فقدان المعايير ، وعي يتكون صاحبه من فتات نفاشات المقاهي وفضلات الصحافة وكتب الدرجة العاشرة قبل أن يصبح ناقداً أو صحفياً ، كاتباً أو مفكراً يساهم في صنع حياتنا الثقافية، وفارضاً نفسه علي أشهر المنابر ، مجرباً حظه في كل مجال من السينما إلي الشعر ومن المسرح إلي الفلسفة والسياسة .

ولا من حسيب أو رقيب ، ليس هناك من يسأل أو يحتج ، من يحلل أو يحاكم هذا الاضطراب أو الترقيع الفكرى أوالهذيان الثقافي .. لأننا غرقي في رمال الحاضر المتحركة التي تأخذنا إلي " حروبنا " الصغيرة والكبيرة ، إلي مصالحنا الفردية وانقساماتنا .

جريدة " القاهرة " عدد ٩٨
٢٠٠٢/٢/٢٦

الممكن غير ممكن !

ثمة مشروع وثمة وسائل لانجاح ذلك المشروع ..

هذه هي المعادلة ببساطة قبل أن تتدخل التعديلات " والفذلكات " التى خلطت بين المشروع كهدف استراتيجي واضح وبين سبل التحقيق المتضمنة القدرة علي المناورة بما فيها التراجع والتقديم والجهود أحياناً " لكل امرئ مشروع ما متفاوت القيمة والأبعاد. قد يتحقق أو لا يتحقق لا فرق - المهم أن صاحبه يسعي بكل طاقاته إلي الوصول إليه ، وربما يفشل ، لكنه يستمر كما زعموا أن امرئ القيس قال مرة "نحاور ملكاً أو نموت فنعذرا " وما ينطبق علي الأفراد ، ينطبق فى إطاره العام علي الأمم والشعوب ، وإذا كان المشروع الفردي ينتهي بموت صاحبه أو حتى فشله الشخصي ، فإن مشاريع الأمم والشعوب لا تنتهي طالما أنها تتناول المصالح القومية العامة التى ليست حكراً علي جيل ، والمشاريع القومية كما مشاريع الأفراد قد تصطدم بعقبات تعرقل مسيرتها نحو التحقق والصيرورة . فهل يعني هذا أن يصبح شعار " فن الممكن " هو القضية الأولي علي حساب القضية الأساسية التى توقفت لظروف قاهرة وآنية فى معظم الأحيان ؟ وإذا كانت السياسة هي " فن خدمة أغراض الأمة " فإنها ليست أبداً البديل عن " أغراض الأمة " ولا يمكن أن تكون إلا هذا " الفن " المتضمن القدرة علي الحركة والمناورة والتلاعب " بالإذن من ميكافيللي طبعا " علي أمل الوصول فى ذات يوم ومع جيل ما إلي " الأغراض القومية " كما يحملها المشروع أو القضية . مشكلتنا اليوم أن الظروف الدولية المستجدة أوصلت مشروع تحقيق قضايانا إلي طريق شبه مسدود وبات علي العقل السياسي العربي أن يشق سبله فى اتجاهات أخري لم يسبق له أن سبر أغوارها من قبل - وفي هذا الخضم تطلع أصوات تريد أن تطير المشروع أو تلغيه بدلاً من المساهمة الإيجابية فى تلمس

الطرق البديلة .

التفكير السياسي العربي تغير كثيراً فى السنوات الماضية " من أبرز الأدلة علي ذلك أن وفوداً عربية - ليست من دول الطوق فقط باتت تجالس وفوداً إسرائيلية وتفاوضها وتسعي معها إلي تحقيق مصالح هزيلة تحت غطاء تسوية سلمية معينة ، ولاشك أن التفكير السياسي الصهيوني نفسه تغير أيضا ، ولذلك صار من الممكن الحديث عن تسوية بغض النظر عن طبيعة تلك التسوية ولصالح من ستكون وهي بلا شك ستكون فى صالح الجانب الصهيوني .

ولكن ماذا عن المشروع الصهيوني ، الذي كان فى أساس وجود الدولة العبرية علي تراب فلسطين : هل أدت الظروف الدولية والإقليمية المستجدة إلي تغييره ؟ أم أنه واجه عقبة محددة فتمكن من فتح مسارات جديدة ستؤدي فى النهاية إلي إنجاز أغراضه الأساسية ؟.

هذا التساؤل نطرحه أمام الأصوات الداعية إلي إنكار " مشروعنا القومي " لصالح حلول سياسية خاضعة فى كل الأحيان لموازين القوي والضغوط والمناورات والظروف المتغيرة بصورة دائمة ، وبنظرة عاجلة إلي تاريخنا السياسي الحديث من ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية إلي لاءات الخرطوم إلي مؤتمر مدريد وأوسلو إلي واي بلانتيشن تؤكد لنا أن السياسة العربية الراهنة لم تعد " فن خدمة أغراض الأمة " بقدر ما صارت " فن الممكن " وهو غير ممكن إجمالاً .

هل غيرت إسرائيل برنامجها الصهيوني " أي مشروعها " فتوقفت عن تشجيع الهجرة اليهودية من جميع أنحاء العالم إلي أرض فلسطين ، وامتنعت عن تطوير برامجها التسليحية المتطورة ،وهجرت بناء المستوطنات . وانتهت سياسة التهجير والإبعاد والإرهاب بحق سكان الأراضي العربية المحتلة ؟

لا ندعو هنا - إلي وقف المفاوضات فهذا ليس من اختصاصنا فى هذا المجال" إذ أننا نؤمن بأن " تفعيل الإدارة السياسية العليا ما تشاء . فهذا من

شأنها " غير أننا نعترض علي الأصوات التى تريد نعي " مشاريعنا القومية " ودفنها لمجرد أن عقبات تعترض طريقها ، ولمجرد أن جيلا أو جيلين فشلا فى حمل عبء تحقيقها ، ونعترض علي تحولاتها المباغتة عن هذا المشروع القومي إلي مشاريع هلامية لا تحتوي أبداً علي أدوات ووسائ لتحقيقها كما المشروع القومي الذي ينفرون منه الآن ويعتبرون أن مجرد الحلم بتحقيقه كان وصار إلي سراب .

النقاش الذي ندعو إليه ليس ذلك الحامل نبرات الموت وصدي المقابر ، بل كل ما يسهم فى توضيح " مشاريعنا " أننا نطرح قضية ثقافية وقضية اقتصادية وقضية اجتماعية وقضية حضارية " كلها تشكل القضية القومية " بهدف إيجاد السبل المناسبة لما فيها خير أجيالنا المتعاقبة . أما ما حدث فى مدريد وواشنطن ، وربما تل أبيب ، وما حدث فى أوسلو وواي بلانتيشن وما سيحدث بالتأكيد فى غيرهما فلا يعنينا بشئ تماما . مثلما لاتعني نتئج التسوية شيئا لليهودي الروسي أو غير الروسي أيضا " الذي يعد العدة دوماً استعداداً للهجرة إلي فلسطين .. أرض الميعاد .

جريدة " العربى "
٢٠٠٠/٣/٢٢

- السرقات الأدبية .. تماسات حدودية

حين أصدر الكاتب الفرنسي جاك اتالي فى أوائل تسعينات القرن الماضي كتابه " فيرباتيم " أعلن فى الصحافة الأجنبية عن قيام هذا الكاتب بسرقة أدبية ألحقها فى كتابه ، كما حدث منه فى السابق أيضا ، حين اختلس مقاطع طويلة من الكاتبين " أرنست يونجر " و " جاك لوجوف " وأدرجها فى كتابه الشهير " حكايات الزمن " من غير أن يضعها داخل مزدوجين . قد لا تعنينا الفضيحة الباريسية أو البيروتية كماحدث منذ أسابيع مع الروائي اللبناني حسن داود من سطو مدجج بالبجاحة علي بعض رواياته وهي لن تكون المرة الأخيرة ، فى هذا المضمار فالسرقات الأدبية متوالية ..ومتعاقبةومتسلسلة .

وإحدي هذه السلاسل الفضائحية ماأثاره مرة كاتب قبرصي غير شهير متهما الكاتب الإيطالي الأشهر " أمبرتو إيكو " بسرقته فى روايته " إسم الوردة " التى راجت كثيراً وترجمت خلال سنوات قليلة إلي لغات مختلفة غير أن الكاتب القبرصي الذي رفع قضيته إلي المنابر الدولية منذ سنوات لم يستطع أن يقاضي غريمه الإيطالي قانونياً ، فالمراجع التى اعتمدها كلاهما لبناء روايته تعود إلي حقبة من حقبات التاريخ اليوناني .

ومن المعروف أن الكاتب حين يعلن أفكاره ويجاهر بها في كتبه ومقالاته تصبح " تلك الأفكار " ملكاً للقراء وعرضة للإقتباس ، لكن إقتباس الأفكار لا يكفي وحدة لإطلاق صفة السارق علي المقتبس .. فالسرقة الحقيقية هي تلك التى تقوم علي اجتزاء مقاطع كاملة وصفحات وربما فصول وإدراجها فى كتاب من دون ذكر مراجعها . أما انتحال أساليب الكتاب وطرقهم فى الكتابة فهو لا يؤكد أيضا صفة السارق بل قد يدخل فى سياق ما يسمي التأثر والتأثير.

وصنف العرب السرقة تصنيفا نوعياً وفق علاقة السارق بالنص المسروق فإذا هى تخضع لتصنيفات جاهزة أو شبه جاهزة سماها الناقد الحاتمي أبوابا ومنها الانتحال والانحلال والإغارة والمواردة والمرادفة والاجتلاب واصطراف وسواها .. ونادرا ما عكف ناقد عي الاهتمام بالسرقات الأدبية ، فهي كانت مفخرة للناقد ومأخذا علي الشاعر والناشر، إلا أن النقاد القدامي ميزوا بين السرقة والتأثير، بين تكافؤا لمنتحل وتقصيرة ، واعتبرت السرقة الخفيفة ضربا من " لطيف النظر" كما يعبر الحاتمي بل إن الصاحب يؤكد بعدما تحامل علي المتنبي وسرقاته أن السرقة ليست عيباً ، أما الجرجاني فى كتابه " الوساطة " فيعتبر أن السرقة " داء قديم وعيب عتيق ومازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد علي معناه ولفظه " .. أما أجمل التعابير العربية التى تصف فعل السرقة فهي أغار علي واختلس وغصب وألم واعتدي وجميعها أفعال سلبية تدل علي حجم السرقة وأثرها وقد وضعت كتب للحديث عن سرقات بعض الشعراء ..ومن أبرزها " سرقات أبي نواس " للمهلهل بن يموت بن المزرع ، وتذكر المصادر العربية كتابا عاماً فى السرقات ألفه جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي .

لكن المسألة أصبحت اليوم علي قدر كبير من الاختلاف والصعوبة وباتت تفترض اختصاصا علميا وإلماما بالآداب الأجنبية ، والسرقة الأدبية لم تعد محصورة فى دائرة الشعر والأدب العربيين بل تجاوزتها إلي سائر الآداب العالمية التى بات من السهل قراءتها ، والتاثر بها إلي حد السرقة ، إلا أن الأمر لم يحل دون إثارة بعض الفضائح الأدبية العربية المعاصرة ، وقد تزدان الفضائح خلال الفترات المقبلة حين يتسني للنقاد أن يقرأوا ويقارنوا ويقابلوا .

أما لماذا يسرق الكاتب ؟ فهذا سؤال يصعب أن يجاب عليه ، أهي عادة من عادات الكاتب السيئة ، أم تراها نزوة من النزوات العابرة ؟.. هل السرقة عيب حقا ؟ .. ألا تضمر السرقة الأدبية نوعا من الاحتفاء بالكاتب المسروق وأفكاره ؟ وإذا كان السارق يعلم أنه مهدد بالفضيحة فلماذا يقبل علي

السرقة ؟

أطرف ما في ظاهرة السرقات الأدبية أن يتخطى الكتاب السارقون الكتاب المسروقين فيغدون أحذق منهم وأمهر وأبرع .. آنذاك يجعل السارقون النتاج الذي بين أيديهم ذريعة لإعادة النظر فيه وضبطه وربما لصوغه صوغا مختلفا وجديدا ، وكم من الكتابات المسروقة بدت أجمل في الحلة التى أسقطها السارق عليها حتي أن النص الأصلي غدا تقليدا " مسبقا " للنص المسروق .

ليس المهم إذن أن يسرق السارقون .. بل أن يعرفوا كيف يسرقون .

جريدة " القاهرة " عدد ٥٤
٢٠٠١/٤/٢٤

المثقف العربي .. " أين " و " ماذا " ؟

المثقف العربي إجمالاً مسكين ! ، يكون أكثر مسكنة إذا كان مبدعاً أديباً أو شاعراً أو صحافياً .

مسكين لأنه أضعف حلقات السلسلة الثقافية ، التي تتكون من مبدع وقارئ ووسيلة نقل للإبداع ، فالمبدعون العرب في وضع لا يحسدون عليه خصوصاً عند اشتداد الأزمات كما في ظروفنا الاجتماعية والسياسة والثقافية الراهنة ، يطلبون من المثقف أن يكون منارة الأمة ومرآة شخصيتها ومستشرف مستقبلها ، من دون أن تتوافر لديه الأدوات اللازمة والأجواء المناسبة لإنجاز هذه المسئولية الكبيرة .. بل كثيراً ما يعامل هذا المثقف وفق المقولة المشهورة " ألقاه في اليم مكتوف اليدين " ثم يريدونه أن يسبح إلي بر الأمان .

وتطلع علينا بين الحين والآخر أصوات تعيب علي هذا المثقف أو ذاك استعماله لأحد المنابر كوسيلة يطل منها علي جمهوره ، وتشتد الملامة إذا ما لبي أحد المثقفين " الحقيقيين " دعوة إلي ندوة أو مؤتمر أو مهرجان تنظمه وترعاه جهات حكومية ، أو شبه حكومية أو عامة .. لا فرق .

وربما تكون الملامة أهون الشرور أمام اتهامات لا تبقي ولا تذر ليس أقلها " الارتباط " و " العمالة " و " الارتزاق " وغير ذلك من شعارات جاهزة عرفت ذروة انتشارها في خمسينات القرن الماضي ، وفي معظم الأحيان لا تكون مشاركة هذا المثقف المسكين إلا شكلية للقاء زملاء من بلدان عربية مختلفة قد لا تتاح له فرصة الاجتماع بهم إلا في مثل تلك المناسبات .

دعونا نوضح أكثر : هل يوجد منبر ثقافي " صحافة ، تليفزيون ، إذاعة ، دور نشر .. إلخ " لا يخضع بشكل أو بآخر إلي ضوابط توجيهية معينة ؟ .. وهل ينعقد مؤتمر أو ندوة أو مهرجان إلا وتكون وراءه جهة منظمة تموله وتسيره باتجاه الغايات التي تريدها .

نحن لا نتكلم عن العالم العربي فقط ، ولا عن العالم الثالث فحسب . بل

عن كل مكان توجد فيه أنظمة وحكومات ووسائل إعلام لها غايات واتجاهات ، وعندها الوسائل المؤدية إلي تحقيق ذلك الغايات .

فأين يجد المثقف نفسه فى خضم هذا الوضع ؟ وهل إذا أطل من علي منبر معين يكون قد أعطي موافقته المطلقة لأهداف ذلك المنبر .. أم أنه يكون فقط مسئولاً عما يريد إيصاله إلي القراء ما دام ذلك يحمل قناعاته الأصلية غير الملونة باعتبارات آنية طارئة .

ولنفترض أن المثقف نفسه وافق علي المشاركة فى مناسبة عامة تجمع عشرات من زملائه القادمين من مناطق مختلفة متباعدة . فهل يسجل عليه أنه " قدم تنازلات " لهذه الجهة أو تلك علي حساب منطلقاته الثقافية الأساسية ؟

ملاحظة مهمة : نحن نتكلم هنا عن المنابر واللقاءات داخل الوطن الواحد وبين الدول ذات الخلفيات الحضارية الواحدة ، وليس عن ندوات ومؤتمرات ووسائل إعلام قد تدعو إلي الاجتماع مع " العدو " فلهذا حديث آخر .

هل تذكرون كم سمعنا الأقوال التالية ؟

قل لي ماذا تأكل ، أقل لك من أنت .

قل لي ماذا تلبس ؟ أقل لك من أنت .

قل لي ماذا تقرأ ؟ أقل لك من أنت .

قل لي من تصادق ، أقل لك من أنت ؟ ..

وعشرات من " القلقلة " المماثلة التى لم تترك شاردة وواردة إلا وركبت لها شعاراً .

ونحن هنا نرفض القول التالي : " قل لي أين تكتب أقل لك من أنت ؟ ونصر علي : " قل لي ماذا تكتب ؛ أقل لك من أنت "

فالكلمة الحق مازالت بخير ، والناس الطيبون مازالوا بخير .. اليس كذلك يا أهل الخير ، كل الخير ؟ .

جريدة " القاهرة " عدد ٤٦

٢٠٠١/٢/٢٧

إيديولوجيا التفتيت

الإعلام فى الغرب مختلف عما عندنا .. إنه أداة أساسية فى ترسيخ المفاهيم الناشئة عن نظرة (أخري) إلي الحياة والكون والفن ، وهو وسيلة " غير مباشرة فى بعض الأحيان - لخدمة الأغراض العليا لمجتمع من المجتمعات ، بغض النظر عن الأبعاد السياسية الآنية الكامنة خلف تلك الأغراض .

وبحكم الانتشار الشمولي الذي يملكه الإعلام الغربي فى عصر الأقمار الاصطناعية وثورة التكنولوجيا ، فإن المفاهيم والمدلولات التى يطلقها ويؤكد عليها تصبح بعد وقت قصير المقياس الأساسي لتقويم الأمور حتى عند الذين صاروا ضحية تلك (النظرة المختلفة) .

وأوضح ما يكون " الاختلاف الغربي فى مسألة الهوية ، ونقصد بذلك تحديد الصفات القومية والوطنية لأية جماعة ، فهنا تتداخل المصالح السياسية مع تلك الاقتصادية ، علي خلفية ثقافية تحمل مخزونات تاريخية تضرب جذورها فى الفكر الذي انتشر فى أوروبا خلال القرون الوسطي ، وما زال مستمرا بعنف - وإن بخفر - فى الغرب المعاصر .

دعونا نحدد أكثر من خلال الأمثلة ..

احتلت مأساة البوسنة والهرسك فى حينها مكان الصدارة بالنسبة إلي الغرب الأوروبي كونها تقع علي تخوم القارة الأوروبية لجهة الشرق .. وتهدد فى الوقت نفسه بالانتشار فى مناطق مجاورة تعاني من فسيفساء عرقية ودينية .

تماماً ما حدث فى يوجوسلافيا السابقة - وكان من الطبيعي والحال هذه أن اهتم الإعلام الغربي بمتابعة الحدث وتغطية جوانبه كافة .

ولست معنيا فى هذا المقاله بالأبعاد السياسية والاجتماعية والحضارية للنزاع بين الجماعات اليوجوسلافية ،بل ينحصر اهتمامي هنا فى المفاهيم التى كان يطلقها ذلك الإعلام أيامها وما يزال ، وصارت تمس مسألة الهوية .. فماذا نري ؟

عندما كان الغرب يتحدث عن البوسنة والهرسك ، فإنه كان يتناول ثلاث جماعات : الكروات والصرب والبوسنيين ، لكنه عندما كان يقرر التحديد أكثر كانت هذه الجماعات تمثل علي الشكل التالي : الكروات البوسنيون ، والصرب البوسنيون ، والمسلمون البوسنيون .

أما لماذا لم يقل ولا يقول الإعلام الغربي إلي الآن الكروات الكاثوليك والصرب الأرثوذكس علي غرار البوسنيين المسلمين . فذلك شأن يدخل - كما أسلفنا فى المقدمة - فى إطار الأغراض العليا للغرب الأوروبي .

لكن هل هذه حالة معزولة ؟

أبداً .. فلنرجع إلي عشرينيات هذا القرن .. عندما اندلعت الثورة السورية لكبري انطلاقاً من جبل العرب فى حوران .. المراجع التارخية كلها تؤكد أن الثورة كانت شاملة ، وتجاوزت " الجغرافيا الدرزية " لتصل إلي دمشق وحلب وحمص ، بل وبعلبك والهرمل وطرابلس .. إلخ .

ومع ذلك آثر الغرب - الفرنسي وغير الفرنسي - على نعتها بـ " الثورة الدرزية " إمعاناً فى مسخ الهوية القومية الذي بدأ مع اتفاقات سايكس بيكو ، ووعد بلفور ومؤتمر فرساى ولوزان وسيفر وغيرها .

مثل أخر أحدث عهداً .. بعد الغزو الصهيوني لجنوب لبنان (بل للبنان كله) فى عام ١٩٨٢ اندلعت مقاومة وطنية لبنانية شاركت فيها أطراف عدة ذات مشارب مختلفة ، دينية وعلمانية ، لكن الإعلام الغربي ظل يردد ويقول " إن رجال العصابات الشيعة " هم الذين يهاجمون القوات الصهيونية ، مع أن أحداً لا يستطيع إنكار الدور الذي لعبته " جماعات مذهبية " أخري فى المراحل الأولي لانطلاق المقاومة ، ولو أن كاتباً عربيا

واحدا قال للبريطانيين إن حرب الفوكلاند ما هي إلا حرب بين البريطانيين البروتستانت والأرجنتينيين الكاثوليك (لمجرد أن هذين الشعبين يدينان بهذين المذهبين المذكورين أعلاه) لقامت القيامة عليه ولم تقعد ..

المشكلة في هذا الإعلام الغربي أن بعض " التابعين " العرب يلتقطون تلك المدلولات والمفاهيم ويحولونها إلي " إيديولوجيا " مقدسة لا يمكن الشك أبدا بمقدرتها وقدراتها السحرية ، وهكذا رأينا في العشرينيات والثلاثينيات مؤرخين لبنانيين يشاركون الفرنسيين وصف الثوار السوريين والبنانيين بأنهم " قطاع طرق وقبضايات فقط لا غير ، وصار المقاومون اللبنانيون الأول عبارة عن " أصوليين متعصبين " يعيشون في القرون الوسطي ، وما اليوم بأغرب من الأمس أو أبعد .

نحن بالنسبة إلي الغرب جماعات ، ولسنا شعبا ذا هوية قومية وحضارية معروفة ، بل وجماعات متنحارة مذهبيا وعرقيا ، لا يمكن لها في يوم من الأيام أن تصل إلي المرحلة المتقدمة من التمدين المديني الاجتماعي ، وهذا الموقف يحمل في طياته عنصرية كامنة - وليست ميتة أبدا كما يدعي التابعون الغربيون - علي أساس أن صفة الشعب إنما هي حالة متطورة - الغرب وحده مؤهل للوصول إليها والاستمرار فيها وتركيز دعائمها .

بينما تحمل أية محاولة من قبلنا لتأسيس المتحد الاجتماعي الواحد بذور تفتيتها الداخلي كوننا " فسيفساء " تتقارب ولكنها لا تتحد .

لا ننكر أن أمراضنا الاجتماعية تختزن مجالات واسعة للتفتت هي نتاج قرون من الانحطاط وضياع الهوية ، توجت بأربعمائة سنة من الهيمنة العثمانية المرعبة . غير أن ذلك لا يعني عجزنا المطلق عن تشكيل متحد اجتماعي ليقف حول مفاهيم مجددة الانتماء القومي أو الوطني ، ومن السهل للبعض أن يعتبر الغرب مشجبا يعلق عليه كل مشاكلنا ، وهو في ذلك مشابه للبعض الآخر الذي يري أن الغرب برئ من استغلال انقساماتنا المجتمعية وأننا نحن غير مهيئين للانتقال من الحالات العرقية والمذهبية إلي المواطنية المتساوية أمام القانون .

مرة أخري نرجع إلي التاريخ المعاصر.. ففيه الدروس والعبر التى يبدو أن المغرمين بالنظام الدولى الجديد يريدوننا أن نمسحها من الذاكرة.. فعندما خرج المشرقيون من قمقم السلطنة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولي، وظهرت اختلاجات الحياة الأولي فى الدوائر الفكرية والسياسية باتجاه تحقيق الذات الوطنية المطلة علي القرن العشرين .. هوجمت تلك الحركات بحراب فرنسية يحملها جنود سنغاليون جاءوا من قلب القارة السوداء " لتمدين " أبناء الشرق القديم، وعندما رفض الأفغانيون الفكر الماركسي علي قمة السلطة فى كابول فى أواخر السبعينيات، تدفقت مئات الدبابات والطائرات ومئات ألوف الجنود " لتقنع " الشعب الأفغاني بضرورة تبني الشيوعية أسلوبا للحكم وللحياة أيضا، ولولا البطولات الخارقة التى بذلها الفيتناميون لكانت القوات الأمريكية أوجدت فلبينيين هجينة أخري فى جنوب شرق آسيا.

الغرب يطلق الصفات ويرسخها! صحيح أنها لا تأتي من فراغ مطلق، بل تستوحي التيارات الكامنة فى المجتمع، غير أنها تخالف المسار العام وتحاول أن تلغيه، وهنا الأزمة الحقيقية، المخططات الغربية كلها تعمل علي إلغاء ما لا يوافق مفاهيمها هي حتى لو اضطرت للاستعانة بحراب السنغاليين الأفارقة .. أو بوارج الأطلنطي وحاملات طائراته.

جريدة " القدس العربي "
١٩٨٧/١/٢٤

تحديات الثقافة العربية

كلما طرحت قضية الثقافة العربية وما تواجهها من تحديات ، برزت التحديات الخارجية ، وسيطرت علي مشهد البحث والنقاش .. الأمر نفسه حدث منذ بضعة عقود حين كان " الغزو الثقافي " أكبر التحديات . القليلون فقط ، وفى أوقات متباعدة تحدثوا عن تحديات داخلية نابعة من صلب الواقع الثقافي ومن الموروث وطبيعة المؤسسات القائمة ، ويبدو أن التحدي الأكبر سيظل سيطرة أسطورة التحديات الخارجية ، وسيطرة الوصفات الجاهزة التى يضعها كل باحث لإنقاذ الثقافة من خطر البيئة والتهميش ووصمة الهمجية واللاأخلاقية ، وهي أخطار يعتقد عدد من الباحثين أنها أصبحت محدثة أكثر من أي وقت مضى بمناسبة النظام الدولي الجديد وثورة المعلومات والتقنية .

وفيما نقرأه الآن تركيز علي أن هناك من يعمل علي " استبعاد الثقافات الوطنية من دائرة المشاركة العالمية " ، ومن يعمل علي " نزع الصفة الحيوية عن الثقافة العربية وتحويلها إلي ثقافة تقليدية " ومن يجتهد لتشويه صورة هذه الثقافة بتحويلها إلي ثقافة همجية لا أخلاقية مقابل الثقافة المدنية ، وأمام هذه الأفعال لا نجد فعلا واحدا رصده باحثون كبار تواجهه هذه الثقافة من داخلها ، ومن قلب مؤسساتها السياسية والثقافية ، وهذه هي الحلقة المفقودة دائما فى غالبية الأبحاث العربية التى تتخذ التحدث الخارجي عنوانا .

ولأن هذه الحلقة مفقودة تتخذ الأبحاث مسردا مألوفا .. أنها تبدأ بتوجيه الأضواء إلي الخارج ، إلي ذلك العنصر " الغازي " أو " المتآمر " وتصف أفعاله العدائية ضد الثقافة العربية ، ثم تقفز عن واقع الثقافة العربية نفسها ، عن بنيتها وآلية انتاجها الراهنة ، وتقدم ما تراه من حلول .

بالطبع يمكن تقديم حل لمشكلة مجهولة ، ومشكلة الثقافة العربية تظل مجهولة فى اعتقادي حتى مع حشد كل الأضواء والتفاصيل التى تشير إلي العدو الخارجي ، أو التحدي الخارجي ، لأن مشكلات أي ثقافة تنبع من رقعتها الجغرافية المحددة ، ومن بنيتها القائمة ، ومن البشر الذين ينتجونها، ولا تنبع من مواقف " الغير " سواء كانت مشكلة الثقافة ، فهو أيضا ليس سبب حل مشاكلها .. الغير فى عقلية العديد من المثقفين العرب عنصر مضخم يعوض عن نقص المبادرة إلي تحمل المسئولية الشخصية ، بل ويطمس هذه المسئولية .. ويلعب الغير الذي ينصبه سياسيون ومثقفون ومتسلطون دور خيال الظل الذي يخفي ما يجري حقا ورا الكواليس ، أي فى الداخل الذي يظل محرما علي الباحث والمفكر.

عند النظر إلي التحديات بوصفها خارجية دائما افتراض مضمر بأن الثقافة الوطنية أم القومية ثقافة سليمة تتوافر علي مقومات وشروط الثقافة الحية . أو الثقافة الإنسانية التى تضارع إن لم تتفوق علي ثقافات أخرى ، لولا هذه الحرب التى يشنها عليها " الغير " أو الآخر ، وفى ظل مثل هذا الافتراض يتوجه الخطاب الثقافي نحو نقد " العدو " أو " الآخر " ويتفنن فى هذا النقد ما شاء له التفنن مع نسيان نقطة جوهرية : إن مثل هذا النقد الذي هو سجال ضد الغير لا يؤسس ثقافة ، ولا يقيم البرهان علي جدارتها ، لأنه لا يعتني بالنظر فى شروط قيامها .

سنكتشف إذا تأملنا واقع الثقافة العربية أن التحديات التى تواجهها وتثقل عليها هي تحديات داخلية ، تنبع من صلب هذه الثقافة من تاريخها الماضى والراهن وليست الديكتوريات (سياسية وثقافية واجتماعية) أي انعدام الديمقراطية ولغة الحوار بوصفه إثراء لموضوع ما ، وتحريم النقد - نقد الداخل - إلا نتائج لمعوقات تشكل أخطر هذه التحديات ، بدل أن تكون هذه التحديات آتية مرة من المستشرقين وتارة من رياح الحرب الباردة وطورا من النظام الدولى الجديد .

وأول هذه المعوقات أن قيم الثقافة العربية ونعني بها المعاشة والممارسة

وليست المحلوم بها ، تتأسس علي هوية عربية مازالت تحكمها دائرة الآنا القبلي فى مواجهة الآخر الإنساني . هذه الهوية لم تحدد نفسها فى إطار أوسع ، أ ي إطار إنساني شامل ، وإن كثر الادعاء فى هذا الإطار ، ولنأخذ المسئولية الأخلاقية أو معيار الضمير فى سياق هذه الثقافة .. إن مسئولية القبلي الأخلاقية لا تتجاوز حدود القبيلة ، وكذلك الأمر في مسألة الضمير الذي لا يظهر إلا حيث ظهرت هذه الحدود ، ولنطبق ذلك علي نظرة الثقافة ممثلة فى منتجاتها إلي مفهوم (القتل) مثلا أو (التعذيب) .

المذهل فى منتجات الثقافة العربية من الخطاب السياسي والشعري أن لا أحد يعترض علي القتل بحد ذاته . أو التعذيب مهما كانت الضحية ، بل هناك اعتراض هنا وقبول هناك ، وإذا أردنا تحديدا أكبر ، يكون الاعتراض حين يكون القتيل أو المعذب من قومنا أو حزبنا أو طائفتنا . أما حين يكون خارج هذه الدوائر فلا معني للاعتراض . واحيانا لا معني لعدم إعلان الابتهاج .

هذا خلل أخلاقي فى أي ثقافاة معاصرة تتجاور مع ثقافات تجاوزت حتى النحت الإنساني إلي الشعور بالمسئولية الأخلاقية عن مصائر الكائنات الحية غير الإنسانية .

ثاني هذه المعوقات أن الثقافة العربية لم تطرح علي نفسها بجدية هذا السؤال : هل ورثت موروثها العقلاني حقا ؟ أم أنها طمست وما زالت تطمسه بإصرار فى العصر الراهن ؟ لقد ثار موضوع التراث فى أكثر من مناسب ومرحلة ، ومع ذلك اقتصرت الإثارة علي تأكيد وجود هذا الموروث العقلاني فى سياق التاريخ إن كانت الثقافة العربية الراهنة قد ورثت هذا الموروث أي اكتسبته ، ولا بحث أحد عن آثار هذا الموروث إن وجدت ولا تسال عن غيابها إن كانت غير موجودة ، وحين يدرس ابن خلدون - مثلا - أو يدرس ابن رشد ينصب الاهتمام علي أننا يجب أن نكون الورثة الطبيعيين لهم ، علي غربة ابن خلدون وابن رشد فى عالم الثقافة العربية الراهنة ، ومرة أخري لا نشير هنا إلي الكتابات التى تزعم أنها تواصل هذا الموروث ، بل تشير إلي مناهج التفكير والنظر والسلوك فى المجتمعات العربية

بوصفها مناهج سابقة علي هذا الموروث العقلاني ومرتدة فى محاكماتنا وطرائقها إلي عصور اللاعقل المغرقة فى القدم.

ثالث هذه المعوقات هو أن هذه الثقافة لم تعش حتى الأن نهضة حقيقية تستند إلي عمق جيولوجي يمتد بضعة آلاف من السنوات بل تحولت (نهضاتها) المتتابعة فى غضون القرن العشرين إلي نشيد وحنين إلي عظمة الماضي، ولهذا السبب لم تتمثل هذه النهضات بمنجزات مجسدة يحققها الإنسان العربي فى العصر الراهن، والتقارب الميزبين ما كان يبدو نهوضا وإزدهار فى عقد من العقود وبين الإخفاقات والإرتدادات المرة يؤكد مرة أخري علي أن النهضة لم تكن منجزات مجسدة بقدر ما كانت رغبات معلنة، وليس أدل علي هذا من مشهد تمحو فيه كل حقبة ما سبقها، وكأن التجارب والمنجزات لم تكن إلا كلمات منقوشة علي الرمال أو أناشيد مكتوبة بالماء.

بسبب كل هذه التحديات والتى هي معوقات فى الحقيقة ولم تمتلك الثقافة العربية الراهنة القدرة للتعامل مع العناصر الخارجية تعاملا مثمرا وفعالا. فلم نأخذ - مثلا - من العالم المعاصر لا تقنيته ولا عقلانيته، بقدر ما أخذنا أدواته وأشياءه، أي المنتج الجاهز للاستهلاك وليس طريقة الإنتاج شأنها فى ذلك شأن الثقافات الأمريكية والإفريقية، فلم تتغير، وبالتالي استحال أن تساهم فى التغيير.

هنالك إذن وظيفة شبه شاغرة تقريبا لم يتقدم مثقف عربي إليها، ومن تقدم بطشت به كل عناصر التعويق المؤسساتية والاجتماعية. تلك هي وظيفة تحليل وبحث التحديات الداخلية، والتى هي التحديات الحقيقية، وليس تلك الأشباح التى يطلق عليها التحديات الخارجية.

جريدة " الجمهورية " اليمن
١٩٩٠/٣/١١

عصر الأيقونات ورقاباتها

قبل ثلاثة قرون أو أربعة ، وضع كاتب غربي لم تكتب له كبير شهرة ، ولا يحضرني أسمه الآن ، نصا ضمنه حلما غريبا . فقد دعا الإنسانية إلي إيجاد كتابة مشتركة يجتمع فى استعمالها كل سكان الأرض .

كان حلم الرجل فى الآن نفسه علي شئ من التواضع ، وعلي درجة من الطموح لا يستهان بها . فهو لم يبشر بالركون إلي تعليم الغباء واحدة لدي جميع شعوب المعمورة ، ولا دعا إلي استعمال لغة كونية وحيدة . يتكلمها ويكتب فيها الجميع . فمثل هذا الغرور يصيب العقل الغربي إلا فيما بعد ، إثر الثورة العلمية التى شهدت القرن التاسع عشر ، والتى جعلت البعض يعتقد أنه بالإمكان " صناعة " أي شئ ، بما فى ذلك لغة يضع مفرداتها ونحوها وصرفها نفر من العلماء ويتعلمها بقية من هب ودب علي وجه الأرض ، وهي المحاولة التى لم يتردد البعض فى خوضها أواخر القرن التاسع عشر ، عندما عمد البعض إلي ابتكار لغات اصطناعية ، كان " الأسبرنتو " أشهرها .

كان هذا الكاتب المغمور علي قدر من " الواقعية " أكبر ، فهو ما كان يريد وضع حد لحالة " برج بابل " التى تسيطر علي كوكبنا ولا كان يحلم بإعادة البشرية إلي وئام لساني افتقدته منذ طفولتها الأولي . هذا إن افترضنا أنها قد تمتعت به يوما .

كل ما كان يريده صاحبنا هو أن تتفق البشرية فى قراءة لغاتها علي اختلافها الشديد وتعددها الهائل ، بأن يتم وضع أشكال كتابية موحدة يقرأها كل علي هواه وبلسانه الأم ، كأن يتم الاجماع فمثلا علي شكل كتابي ما يرمز إلي " الجيل " يبقي هو ذاته لدي الجميع ، وينطقه كل بلغته ، وهكذا دواليك بالنسبة لكم المفردات الممكنة والمحتملة ولدي كل الأمم والمجموعات

اللغوية ، وقد ظن كاتبنا أنه قد وجد ضالته فى الكتابة العينية ، فهذه الأخيرة تتكون فى نظره من عدة آلاف من الأشكال ، تستعمل فى جميع أنحاء الامبراطورية الوسط المترامية الأطراف تستند إلي ذلك الجهاز الضخم الذي أطلق عليه عالم الصينيات المحدث " ايتيان بالاش " اسم " البيروقراطية السماوية " ويقرأها كل فى لغته من أقصي البلاد إلي أدناها .

لن ندخل فى مناقشة أفكار صاحبنا هذه وطوباويته الكتابية ، ولكن ما ذكرنا به وما دعا إليه . إن ما يجري حولنا فى زماننا هذا . ربما أوحي بأن أحلامه أصبحت بصدد التحقيق ، وبأننا ربما دخلنا عصر تلك الوحدة " الكتابية " الكونية التى كانت لاشك تبدو فى زمانه ثمار مخيلة زل بها التأمل وأنهكتها العزلة .

فنحن نعيش اليوم زمن الأيقونات .. ليس بذلك المعني الديني الذي منحته لهذه العبارة المجسمات والرسومات التى ابتدعتها المسيحية الأرثوذكسية الشرقية طيلة قرون ، ولكن بذلك المعني الذي ما انفكت تفرضه وتؤكده وسائل الاتصالات الحديثة فى أيامنا هذه .

فإذا ما كانت آلة عصرنا هذا دون منازع هي الكمبيوتر ، فإن شاشات هذا الأخير مليئة بالأيقونات . لم يعد علي المستعمل أن يصدر إلي الآلة أمرا مكتوبا بفتح هذا الملف أو بإطلاق ذاك البرنامج أو بالقيام بهذه المهمة أو تلك . بل أصبح عليه أن يكتفي بالتأثير علي " أيقونة " أو رسم صغير يرمز إلي واحدة من هذه المهام ، فينطلق الكمبيوتر منفذا منجزا ما طلب منه .. يبقي أن نشير إلي أن تلك " الأيقونات " رموز مفهومة كونيا مهما كانت لغة الاستعمال " يتكلمها " الياباني والأمريكي والخليجي وساكن بلاد الاسكيمو علي حد سواء .

وإذا كنا قد أشرنا هنا إلي الكمبيوتر ، فذلك لأن هذه الآلة هي عنوان هذا الزمان . تماما كما كانت الحال بالنسبة إلي حقب سابقة مع تصميم استعمال السيارة أو الهاتف أو الراديو أو التليفزيون أو الثلاجة أو سوي ذلك . كل واحدة من هذه المستجدات منفصلة أو مجتمعة أوجدت تغييرات عميقة

أثرت علي ثقافة الفرد والأسرة والمجموعة ، والكمبيوتر ذلك الذي أصبح يتحكم في تسجيل وبث الصورة والصوت وفى الكثير من مناحي الحياة ، هو الأداة الأبرز في صناعة ونشر الثقافة الناتجة والتى ستنتج عن ثورة الاتصالات ، وهذه من " الأيقونات " المفهومة كونيا ، والتى تمثل ذلك الحد الأدني من لغة تفاهم عالمي ومن رموزه ، يتحاور مع الثقافات المحلية ويتجاوزها فى الآن نفسه .

لكل عصر " الأيقونات " هذا الذي أصبحنا علي أعتابه لا يمكن رده فقط إلي تطور تكنولوجيا الالكترونيات وإنجازاتها الهائلة ، ولكنه ربما عاد إلي ماهو أعرق وأبعد غورا . لكأن الكلام العادي ، مكتوب أو منطوق ، وما يحمله من آراء وأفكار ، لم يعد يفي بغرض التواصل . ربما بسبب من انقراض المنظومات الفكرية والأيديولوجيات المعترف بها عالميا ، وما نتج عن ذلك من فوضي القول السياسي والثقافي .

لقد أصبح يوجد ما يشبه الميل إلي تفضيل التخاطب بواسطة "الايقونات " علي التواصل بواسطة الكلام ، وكان هذا الأخير أصبح عملة عديمة المصداقية أو ضعيفتها فى سوق التداول اليومي ، وأصبحت الفكرة والرأي يعبران عن نفسيهما بوضوح أكبر إن هما تمثلا فى رمز مرئي . يسهل التعرف عليه ويتوجه إلي العالم من خلال أجهزة الإعلام بأنواعها . يكاد يتعلق ذلك علي كل شئ بما فى ذلك السياسة وحتى العلاقات الدولية .

لنتذكر التحولات التى شهدها ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى فى أيام بيرسترويكا وغلا سنوست غورباتشوف . فى ذلك الوقت أكثر الرجل من حديث الإصلاح والانفتاح ، لكن الحذر كان سيد الموقف فى الخارج . فهذا الأخير لم يرد أن يعبأ بكلام ما يماثله منذ عهد خروتشوف ، " وكان تجاوبي شخصيا وبعض الزملاء فى اتحاد أدباء اليمن مع هذه الدعوة أثناء زيارة لاثنين من كتاب الاتحاد السوفيتي لعدن عام ١٩٩٠ ، إلا علي هذا الأمر " ولكن بدأ كلام غورباشتوف ينال المصداقية عندما تبعته إجراءات ملموسة ، تعلقت بالجوانب الديبلوماسية والعسكرية وسواها ، وأهمها الثقافة ،

وتعلقت كذلك " بالأيقونات " بدخول كوكوكولا السوق الروسية وبافتتاح أول محلات ماكدونالدز فى موسكو. صحيح أن وراء هذه وتلك استثمارات ومصالح اقتصادية ، لكن البضاعتين وما ترمزان إليه هما كذلك أيقونتان يمثل إدراجهما فى الفضاء السوفيتي العام قبولا بنمط حياة معين ، والدليل الأوضح علي القطيعة مع ثقافة اقتصادية واجتماعية وسياسية سادت طيلة سبعين سنة .

وفى أوائل العام ١٩٩٣ ، ومن قبيل الشئ بالشئ يذكر أولت وسائل الإعلام اهتماما خاصا بعودة كوكاكولا إلي إيران ، وتساءل كثيرون ما إذا كان ذلك يمثل مؤشرا علي رغبة الجمهورية الإسلامية فى مصالحة العالم الخارجي مما يعني أن دخول تلك الأحرف الحمراء التى يتشكل منها اسم المشروب الأمريكي واندراجها ضمن المشهد العالم الذي يعيشه الفرد الإيراني ، حدث يكاد يتجاوز من حيث دلالالته أكثر تصريحات بعض القادة الأيرانيين ليونة تجاه الغرب وتعبيرا عن الرغبة فى مصالحته .

فى الأسبوع نفسه الذي عاد فيه مشروب كوكاكولا إلي السوق الإيرانية ، كانت السلطات الجزائرية أيامها تتخذ من ناحيتها إجراء " بصريا " أولته وسائل الإعلام الاهتمام الذي يستحقه ، فقد اتخذت قرارا بمنع الموظفين والموظفات من ارتداء ما عرف بالزي الإسلامي .

من وجهة النظر الأمنية ربما بدا هذا الإجراء للوهلة الأولي منافيا للنجاعة ، ذلك أنه ربما كان أفضل بالنسبة لرجال الأمن الاستفادة من ذلك المظهر الخارجي لرصد الاصوليين والمتعاطفين معهم والتعرف عليهم ، لكن التجربة ، وكما عاشتها تونس من قبل اثناء المواجهة مع أصوليى حركة النهضة دلت علي أن مثل هذه الإجراءات أبعد عن أن تكون عديمة الجدوي فما عرف بـ " الزي الإسلامي " فى إيران وفى معزل عن إدعائه القطيعة مع ما هو مستورد هو أيضا جزء من عالم " الإيقونات " الذي نعيش .

إنه الموقف أو الفكرة مرئيين ومعروضين علي الأبصار ، ويجهدان فى فرض الذات من خلال احتلال حيز ، من المحبذ أن يتزايد ويتسع فى المشهد

والفضاء العامين ، وعمل السلطات علي إخفائهما إنما هو جانب أساسي من معركة مجابهة ما بيثلان ، فمحو الأيقونة بمثابة الإلغاء لصاحبها الذي يتعرف علي نفسه فيها .. هكذا .

ومع دخولنا عصر التعبير بالإيقونات نكون أيضا قد دخلنا عصر الرقابة علي الأيقونات .

وختاما ..

هو كما تري موضوع واسع شاسع واعد لم أفعل هنا سوي ملامسته عل ذلك يساعدنا علي إدراج وعينا به ضمن مكونات حداثتنا المنشودة ، وعل من هم أجدر مني فى هذا الشأن استكناه دروبه وتحليل جزئياته .

جريدة " الجمهورية " اليمن
١٩٩٢/٥/٢٠

نهاية التاريخ وبدايته

يفاخر الباحثون بأن الصراع الأكبر فى دنياهم لا يقوم بين الرأسمالية والشيوعية . بل بين الغرب والإسلام (الكوني الإسلامي) . وحين انتهت الشيوعية فى قطبها الأكبر وكونها الأول " الاتحاد السوفيتي سابقا " اتضحت معالم هذا الصراع وبات بعض المتشككين علي قناعة بأن العدو الأول للغرب هو الإسلام بل إن الإسلام هو الذي أضحى بمثابة العدو الأول للغرب ، ويذهب بعض المحللين إلي أكثر من ذلك حين يقولون " لم يجد الإسلام فرصة للتعبير عن شقائه ورفضه كما وجدها فى موت الشيوعية ، فالرأسمالية التى كانت تتحالف أحيانا فى الظلام مع أشد المسلمين تطرفا فى حربها ضد الشيوعية " مثلما حدث فى حالة أفغانستان " قد أصبحت الآن فى مواجهة مفتوحة مع الإسلام حالما سطع نور الحقيقة .

أصوليون آخرون من الكون الإسلامي لا يجدون حرجا فى تشبيه انتفاضة الإسلام ضد الغرب الفاسد .. بالثورة الثقافية الصينية ، فهذه الثورة كانت تمردا شاملا علي المركزية الثقافية لهذا الغرب ، واستطاعت أن تبهر شباب هذا الغرب فى نهاية ستينيات القرن العشرين حين عادت إلي الجدلية الطاوية وهاجمت الجدلية الهيجلية ، كما أشاعت من جديد أخلاقيات كونفوشيوس وتراث الثورات الفلاحية الصينية الأولي ، وهو أمر مازال يبهر العديد من المثقفين الأصوليين وغير الأصوليين فى العالم الإسلامي وهم منهمكون فى معركتهم - الفاصلة - ضد هيمنة العرب منذ أكثر من خمسة قرون ، مازال الغرب مترددا فى التعامل مع هذه الأصولية الزاحفة ، وحتى الحكومات لا تعرف بالضبط محتوي تفكير مراكز القرار فى هذا الغرب تجاه هذا الزحف الأصولي ، بل كثيرا ما اشتكت من ذلك التردد والغموض إلي حد وصف بإنه " حياد لئيم " سيدفع الغرب ثمنه لاحقا ، لكن ثمة فى الغرب من

يهزه الخوف ويدفعه إلي الكتابة عن الأصولية الإسلامية ، وكأنها هي الإسلام أو هي العالم الإسلامي إذا لم يكن استيعابه عن طريق التحدث فإنه سيواصل عناده وجهله إلي حد إيصال الغرب إلي الجحيم " ومثل بايبس يتسابق كتاب الافتتاحيات الغربيين إلي تدريج التهديدات وزرع الخوف في مواطنيهم من الاجتياح الإسلامي الذي يزداد عاما بعد عام ، وهو يختلف عن الحرب الباردة فى النوع والدرجة كونه غير خاضع لأية عقلانية ويبشر بخلاص العالم من أشرار وأبالسة الغرب .

بين التردد الغامض الذي يذهب إلي حد لعق أحذية بعض الحكام والتعميم الدهمائي الذي يسيطر علي جزء من مفكريه يقع الغرب حائرا فى معالجة مشكلة الشرق الحائر : الإسلام والأصولية . ومنذ سقوط الاتحاد السوفييتى وتفكك دوله أصبحت روسيا إحدي قلاع هذا الغرب إذ عليها أن تلعب دورا بارزا لوقف نزعات الإحياء والأصولية خصوصا وأنها تشغل الخاصرة اليمني الحيوية للغرب التى تمتد من البحر الأسود إلي "فلاديفوستك " كما أن لها تقاليد ثرية فى عمليات الاحتواء لهذه النزعات فى الجمهوريات الإسلامية الخاضعة لها سابقا وفق صيغة الاتحاد .. وأن يطلب الغرب من روسيا أن ينضم إليه فى معركتها ضد " الكون الإسلامي " فذلك دليل آخر علي أنه لم يستعد إلي الآن إلي هذه المعركة ولم يتأكد من حلفائه الحقيقيين ، ويبدو أنه أصبح علي يقين من أن ذلك التفكك الذي أصاب " الاتحاد السوفييتى " حمل معه احتمال نشوب حرب دينية تتضمن أسلحة نووية وكيماوية وبيولوجية .

إن المسلمين ليسوا متعصبين بالفطرة ، كما يقول البعض ، لكن الغرب يتلذذ فى جعلهم هكذا ، والدراسات الجادة لا تعطي لهؤلاء المتعصبين أو الأصوليين أكثر من ١٥٪ من المساحة السياسية فى الكون الإسلامي ، وحتى وإن ظهرت الغالبية سجينة الإحباط والأزمات فإنها ليست فى متناول شبكات الأصولية الناشطة ، ومن دون أن نقول أن العنف هو أحد عوارض المجتمعات المتخلفة والمفككة فإن أسبابه واضحة فى قلة الديمقراطية فى

معظم البلدان الإسلامية .

حتى المديح الذي يساق إلي ما يسمي " بالديمقراطية التركية " هو نوع من التجني علي هذه الديمقراطية وعلي تلك الأقليات المداسة تحت الجزمة العسكرية أكثر من ذلك الغرب هو الذي يهب فى كل مرة إلي دفن أية تجربة ديمقراطية فى أي بلد إسلامي وإذا لم يفعل ذلك فإنه يجنح إلي الصمت المطبق تجاه اختراقات حقوق الإنسان التى تحدث يوميا وضحاياها المغفلين ليسوا إلا أولئك الأصوليين .

لكن أكثر ما يقلق الغرب هو أن الكون الإسلامي هو الكون الوحيد الذي لم يندمج فى ثقافة الغرب ويبدي ممانعة شديدة الحساسية تجاه مطهرة الغرب لأنه علي قناعة بأنه يحمل ثقافة عريضة وغير قابلة للذوبان ووراءه تاريخ طويل من مجد السيطرة ، رغم أن عديدا من المسلمين ينجذبون إلي الغرب علي نحو مهووس إلي درجة الرغبة فى التحول إلي قطعة منه ، ومن خلال مراقبة حركات الهجرة يظل المسلمون أكثر مقاومة للأندماج ، وحين تجعلهم القوانين أمام خيارين العودة أو الإندماج ، فإن الأغلبية تفضل العودة وهما خياران لا رحمة فيهما ولا تسامح ، إن مجموعات الباكستانيين فى بريطانيا أو الأتراك فى ألمانيا أو مسلمي المغرب العربي فى فرنسا إذ هم يرفضون الاندماج فى غالبيتهم فإنه يثيرون أكثر الاضطرابات إثارة داخل الديمقراطية الغربية ، لأنهم يفضحون أنانيتها ويكشفون عن انتقائيتها العرقية والدينية أيضا . فالديمقراطية المسيحية تبدو وكأنها للمسيحيين فقط، وما دامت لم تستوعب - الاختلاف الإسلامي - حتي الآن فلأنها لم تعلم من تاريخ قسوتها تجاه الاختلاف اليهودي فيما مضى .

ليست الهجرة وحدها تثير تلك المخاوف ، كما ليست نزعة الجهاد هي التى تجعل من المسلمين جميعهم " الغول القروسطى " الذي سيأكل الغرب الطازج ، بل إن التزايد الديموغرافي فى الكون الإسلامي كثيرا ما يجعل الأمهات الأوروبيات المتهمات بالكسل والأنانية فى حرج .

إن المقارنة بين تزايد المسلمين وتزايد الغربيين تجعل هؤلاء الأخيرين فى

خانة الشعب العاقر تقريبا ، فنسبة الولادات عند المسلمين تشكل النسبة الأعلي في العالم وتثبت أحدث الدراسات أن نسبة الإنجاب تعادل ستة أطفال للمرأة المسلمة مقابل طفل ونصف للمرأة فى البلدان الصناعية ، وهذا الخلل الديموغرافى يراه البعض بمثابة التحدي الأكبر للحضارة الغربية التى لا تعرف كيف توقف ذلك السباق المحموم حتى داخل حدودها ، فالمسلمون الذين يسكنون الغرب هم أيضا أكثر خصوبة من السكان الأصليين ، ومنذ مدة أصبح الإسلام بفعل تزايد الولادات وتزايد الهجرة الدين الثاني فى أوروبا ، أما فى الولايات المتحدة فإنه يتجه لكي يصبح الديانة الثانية خلال أقل من عقد ، وعلي رغم ذلك كله لن يتغير طابع الحياة فى أوروبا ، فلا الأصوليون الذين يتبجحون بغزو أوربا من الداخل ولا المنغلقون الأوروبيون الذين يبالغون فى تضخيم هذا الخطر من حقهم أن يجعلوا من حياة هؤلاء أو أولئك كابوسا لا حد له ، أن الاعتقاد بأن الأصولية الإسلامية سترث الأصولية الشيوعية كونها تشكل الخطر الرئيسي علي الغرب ورفاهيته هو اعتقاد مبالغ فيه إلا إذا نظرنا إليها بإعتبارها حاملة لانقسامات مذهبية وطائفية ستحمل مكان الانقسام الأيديولوجى أو الطبقي ، وبهذا المعنى فإن التاريخ الذي شارف علي نهايته حسب " فوكوياما " سيكف عن إعطائنا أية إضافات باتجاه المستقبل ، ويلفنا غوغائية تتجه نحوا الماضى .

إن الماضى ، كما يقول أحد المفكرين . تعبير عن الحزن الإنسانى العميق واعتراض علي هذا الحزن – لكن الأصولية بجميع نزعاتها التطهيرية والخلاصية والتسووية لم تفلح فى الكشف عن ذلك الحزن حتى الآن كما لم تعرف كيف تعترض عليه وبدت عاجزة عن الإجابة علي أسئلة العصر ، حتى أنها بدت وكأنها مرض أصاب غالبية الحركات السياسية الفاشلة بالضمور والشحوب - إنها وهى تدخل الحلبة من أجل صراع مرير ضد القهر والاستلاب فى زمن مضطرب يتسم بفراغ سخيف للأفكار المبتكرة قد أفلحت فى التعبير عن حزن ويؤس حامليها كذلك منتدوها أكثر مما أفلحت فى التعبير عن الحزن الإنسانى الشامل .

فلما لم تفلح الأصولية فى التعبير عن ذلك الحزن النبيل ، تلك الطاقة الإنسانية الكامنة ، لم تفلح أيضا ، وطبيعيا ، فى الكشف عن هويتها لجميع الالتباسات ولم يكن فى المستطاع أن تتجلي تلك الأصولية إلا فى أشكالها الأكثر رثاثة منتزعة الزمن من مساره الحقيقي ، سابقة أو لاحقة للتاريخ والشرط الإنسانى ، هارية ، منغلقة أو مجمدة فى مكان قصى .

لكن أليست تلك هي أيضا مواصفات الغرب (الأصولي) ؟ سيكون من الانصاف للموضوعية لو قلنا أن عماء الغرب هو الذي انتج هذاالعماء المضاد ، وأن هذا يتغذي من ذاك ، وأن غياب الشيوعية قد وضعهما وجها لوجه للتأمل فى قبح بعضهما بعضا وقد يضعهما فى فترة لاحقة وجها لوجه فى حرب مجهولة العواقب إذا لم يعترفا ، أيهما الضحية ؟ ، إيهما الجلاد ؟

إن الشيوعية التى قد تكون تركت (الكون الإسلامي) يتيما وبلا حليف. إنما هى تركة مسلحة أيضا . بعد خمسة قرون من استرجاع اسبانيا ، وأربعة قرون من فك الحصار علي فيينا ، علي الغرب أن يعرف أن الوقت قد حان للإجابة عن بداية تاريخ جديد بين الشرق والغرب لما بعد (نهاية التاريخ) .

جريدة " العربى "
٦ / ٥ / ٢٠٠٠

أين يقع التأريخ بالضبط ؟

ما يصح فى الناس يصح فى الوقائع والحوادث والأفكار. فالتأريخ للمسيرة الفكرية علي نحو "من التراث إلي الثورة" وهو ما ذهب إليه الطيب تيزيني وحسن حنفي أمر لا يخرج عن كونه حمل الزمن علي الدهر.

يكتب خورخي لويس بورخيس ، وهو يقدم لشاعر أرجنتيني معاصر من " بونيس ايرس " " إيفاريستو كاريغو " كان قد عرف بشعر كتبه لموسيقي التانغو فى ابتدائها . فيقول ! البلاد الفتية وحدها يحق لها ادعاء ماض تنتسب إليه . تضيفه إلي نفسها ، ويشرح الأرجنتيني الغريب والكبير ما يعنيه بالماضي فى كلامه المبهم . فهو يعني به ما يتذكره الواحد من سيرته ومن حياته هو، أي " التاريخ الحي " . الذي يجري بحوادث كثيرة ومتشابكة، وتوهم هذه بزمن " كثيف ومتشابك فلا تحصي خيوطه ، ويخلص بورخيس من هذا إلي أن " الزمن انفعال أوروبي " يتمتع به رجال " أغنياء بالأيام " فهو " أي الزمن " شاهد عليهم جميعا . أما خلاف هذا التناول للماضي والتاريخ والزمن فهو العيش فى ظل حصون غرناطة المعمرة والسنة مئة مرة أكثر من شجرات التبني ، وأصحاب هذا الماضي السحيق . " عمرهم من عمر الزمن " . فهم إخوته ومعاصروه .

لذا اختار بورخيس موضوعا لتأريخه وترجمته ، رجلا عرفه وكلمه وسمعه وحادثه وساكنه فى حي واحد من أحياء " باليرمو " ضاحية المدينة الأرجنتينية . فالماضي بهذه الحال يلازم سيرة المرء وحياته وحوادثها ، من وجه يلازم سيرة المرء وحياته وحوادثها ، من وجه ، ويلازم من وجه ثان بعثه فى الكتاب والتذكر والتأريخ . فلا يتوهم " المؤرخ " كتب تاريخه أو قصة ؟ أو رواه لنفسه علي حال لا يتحول عنها إلي غيرها ، فهو مقيم علي هذه الحال مهما كان من شأن صاحبه فى باقي أيامه وآيتها ، ومهما كان من نظرة فى ماضيه . أو فى بعضه ، ومن أعماله نظرة فى استقبال حوادث تالية علي وجه دون وجه .

أي أن الماضي الذي يمضي مرة واحدة ينتصب تمثالا لمعناه ودلالته ونصبتهما الجامد ، فيحرج صاحبه ، فردا كان أو جماعة أو قوما ، بنظرة قلما تباين المراقبة والمحاسبة والضغينة ، هذا الماضي هو بالدهر أشبه . وعلي هذا فليس للأمم القديمة ماض بالمعني الذي تقدم ، علي الضد من زعمها . بل من أقوي مزاعمها وأوكدها وأثبتها عند نفسها . فهي - أي الأمم القديمة - مفتونة بما كان في يوم من الأيام ماضي الجماعة التي صنعت حوادث قريبة ، فسنت شرائع ، ونزلت بلادا ، ومصرت أمصارا ، وقالت شعرا ، ورفعت مباني وصورحا ، وابتكرت معاني وأنشأت رجالا ونساء علي غير سنة معروفة ، فيحملها افتتانها علي الإقامة علي الاحتفال بما صنعته الجماعة الأولي ، وتنسب إلي نفسها اليوم هذا الصنيع ، وتؤرخ له اليوم بالتأريخ الذي أرخته له يوما ، الجماعة التي صنعته في أمس قريب " وهو قريب من الجماعة الأولي . الفتية الجديدة " أما ماضيها القريب فيبدو لها فقيرا وغير جدير بالنص والرواية فالأحرى ألا يبدو لها جديدا بالتدوين والتناقل والتحقيق .

فينتج عن مقالة بورخيس أن الإقبال علي تأريخ الماضي القريب ، والاشتغال به ، هما من معايير فتوة الأمم أو هرمها وشيخوختها ، فالعزوف عن كتابة التاريخ القريب علي وجه السيرة والترجمة ، للمرء أو الحادثة والفعل أو للجماعة ، قد يكون قرينة علي استظلال حصون غرناطة وتقديمه علي استظلال شجرات التين في باليرمو أو.. حيث ينزل " المؤرخ " ويقيم في كلا الحالين ، ولا يكون للجماعة الحية ماض حقيقة ، تستولده ما تصنع اليوم . وتنشئه في الاستعادة والرواية والتدوين ، إلا إذا أقبلت علي رواية سيرها الكثيرة وحوادثها المتعاقبة والمتغيرة .

والساعي في جمع السير العربية أو المكتوبة بالعربية ، قلما يقع علي غير رواية اجتماعية ومتعارفة لحوادث مشتركة لا تحتمل روايتها " التأريخ لها " - ولغة هذه الرواية ، معني غير المعني الظاهر والمشهور، وكنا قد قرأنا تباعا سيرا لرجال معروفين ، وبعض نساء هؤلاء الرجال في رجالهن . بما يزيد علي

بضعة عشر كتابا ، وخلصنا من قراءتنا إلي أننا اليوم - بعد هذه القراءة - أجهل بهؤلاء الرجال وبزمنهم وحوادثه منا قبل القراءة ، فهم فى مرآة سيرهم المزعومة ، يشبه واحدهم الآخر. أو الآخرين علي نحو لا يعقل فى بشر أحياء ، فلا يبقي فى تدوين الحادثة أثر ينبئ عن وقوعها فى وقت دون وقت ، وبموضوع دون موضوع ، ومن إنسان دون إنسان ، وإلي هذا كله لا تتم كتابة الحادثة أو الواقعة بكاتبها والشاهد عليها .

والحق أن نازعنا إلي تناول الأمور والوقائع والناس " من البداية " أو " من " الطوفان " أو " زمن نوح " علي ما يقال كذلك " وجه من قلة الأعمال التى تتناول التاريخ الرقيب والمشهود ، ومن كثرة الأعمال التى تروي . المرة الألف ومن غير أثر جد ونبش ، حادثه عظيمة عظم حصن من حصون غرناطة ، وقديمة قدم الحصن أو أقدم بكثير ، وحين سعي صاحب دار الطليعة ببيروت فيما سبق ، فى طباعة مذكرات سياسيين أو رجال فكر وأدب عرب ، علي ما كان المثقفون يدعون ، فالتمس من الأبناء أو الأحفاد قراءة ما تركه أباؤهم أو أجدادهم ، وقع علي تقارير ورسائل إدارية ، وعلي مقالات سياسية معروفة ، فاضطر إلي جمع بعضها ببعض وطبعها ورسمها برسم " مذكرات.." و " مذكرات " و " مذكرات .. " من أسماء مثل ياسين الهاشمي وشكيب أرسلان وغيرهما .. وليس فيها من التذكر ، ومن التخصيص شئ .

وما يصح فى الناس يصح فى الوقائع والحوادث وفى الأفكار ، فالتأريخ للسيرة الفكرية علي نحو من " التراث إلي الثورة " وهو ما ذهب إليه الطيب تيزيني وحسن حنفي ، لا يخرج عن حمل الزمن علي الدهر ، ولا عن شيخوخه مقيمة ولا تنوي أن تحول . فيما يذهب إليه يورخيس يفرد المرء والحادثة وحتي الفكرة بتعاقب يخصها ولا يشاركها فيه غيرها ، أما افتراض العموم أو العام " موضوع العلم " فى ما لم ينفرد من قبل فلا يعدو الرسم باللون الأسود علي لون أسود .

جريدة " القاهرة "
٣ / ٤ / ٢٠٠١

سؤال الكتابة .. وخيارات الكاتب

قبل عقود قليلة كان الكاتب الذي يعمد إلي المقارنة بين ما نكتبه " نحن " العرب وما يكتبه الغربيون فى ميل غير خاف إلي ما يكتبه هؤلاء ، يجد نفسه فى مواجهة دعاة الأصالة ، علي قاعدة أن لنا ثقافتنا الأصيلة التى لا ينبغي الحط من شأنها فى سياق الترويج لثقافة الآخر المتقدمة فى الحاضر ، كان ذلك أيام الصراع " الطريف " بين أتباع الأصالة والمعاصرة ، الحديث والقديم، العام والخاص .. إلخ .

اليوم إذا حاول الكاتب أن ينبرى لمهمة كهذه يجد نفسه فى مواجهة الجميع تقريبا ، الذين بات تصنيفهم مشكوكا فى صحته ، الذين اكتسبوا معارفهم من مصادر غربية الأربعة عقود أو الخمسة الماضية ، فالسمات الرئيسية للثقافة الغربية تميل إلي رفض مقارنات من هذا القبيل ، فهذه ثقافة تنزع إلي دراسة مكونات الخطاب بكافة أنماطه ، بل والكيفية والظروف التى أدت إلي تبلوره علي هذا النحو أو ذاك ، لذلك ، فإن أسئلة مثل : هل الماركسية فلسفة تستجيب لمتطلبات العصر ، أو ما غاية الوجود إذا كانت ثمة غاية له ؟ أو ما العلاقة بين النفعية والنسبية والبعد الأخلاقي لكل منهما؟ هل فى الديمقراطية حل لمعضلات المجتمع المعاصر ؟ .

تصبح مثل هذه الأسئلة تقليدية خارج العصر ، نوستالجيا رومانسية لزمن الأسئلة الكبيرة .

تصور أن مثقفا يريد أن يتحدث عن مفهوم الإلتزام لا الالتزام وفق قواعد الأرثوذكسية الماركسية ، وإنما الإلتزام بقضية الإنسان وبحقه فى حماية نفسه من الألم والأذي جسديا كان أو عقليا ، بحق الإنسان فى التعبير عن ذاته والعيش بسلام سواء اتفقت آراؤه مع السائد أم لم تتفق ، تصور كاتبا من هذا الطراز اليوم . إن حاله لن يكون أفضل من حال شاعر ينظم قصيدة

عمودية بصرف النظر عن مصداقيتها ، فهذه فى النهاية قصيدة عمودية ، وتلك أسئلة تنتمي إلي القرن التاسع عشر ، ليس مهما اليوم إذا كنت ليبراليا أم لا ، المهم أن تعرف ما مكونات الخطاب الليبرالي ، ما أصوله وما علاقته بالبنية الاجتماعية التى ينشأ فى كنفها ، ومن الساذج أن تقول إنك كاتب فوضوى من جانب ، وإنك ضد المؤسسة والسلطة بكافة أشكالها ، لكن من الضروري أن تجيد تفكيك الخطاب الباكونيني " من باكونين " ، أن تعرف لا أن تعتنق أو تدافع عن فكرة ما ، ربما نحن أمام معادلة أخري من قبيل نظرية روسو القائلة : إن المعرفة معرفة الإنسان الخير والشر .

لكن فى النسق المعرفى الراهن حضورا لكل شئ باستثناء الإنسان لا سيما الإنسان وفق تصور روسو ، ليست هذه هزيمة للفكر التفاؤلي ذي الطابع الاعتقادي ، ولا هي بالضرورة انتصارا للعدمية التشاؤمية . فالأولي لم تكن هزيمته سوي حتمية ، والثانية استنفدت ما بين كتابات شوبنهور وكتاب أميل سيوران " تاريخ مقتضب للانهيار " .

إننا نعيش زمن ثقافة الكتابة عن الكتابة ، والقراءة عن القراءة ، حيث لا وجود للآراء والمناهج والمقولات إلا فى سياق النص ، وهيمنة ثقافة من هذا النمط تجعل مجرد الحديث عن التفاؤل والتشاؤم مثار سخرية ، القراءة الحديثة بصيغتها التشاؤمية كما لدي ثيودور أدرنو هي نقد الثقافة فيما تقوله وتجاوزها نحوما لم تقله ، أما " النزعة اللاتشاؤمية " عند ميشال فوكو فلا تتجاوز حدود المقروء ومكوناته .

ليس المقصود هنا الهجوم علي ثقافة ما بعد الحداثة وإنماملاحظة مدي التطرف الذي وصلت إليه فى التقابل من شأن القضايا لصالح معرفتهما ، هذه الثقافة التى قامت علي مناوأه الدوغمائية ، لم تكن أقل دوغمائية فى جنوحها نحو تحليلية علموية مفرطة تدعي إمكانية معرفية كل شئ وقول كل شئ .

جاك دريدا فى هذا المعني ، ليس سوي دوغمائي من طراز جديد ، الحقيقة بالنسبة إليه ليست غاية فى ذاتها وإنما الغاية فى كيفية الوصول إليها فهو

فى انزاله الحقيقة إلي درك العيانية يفقد قضايا الإنسان معناها .

الأمر الثابت أننا لا نزال نعيش فى ظل ثقافة ما يسمي عصر التنوير ، تحديدا فى ذروة تبلوراتها المتباينة لدي هيجل وماركس ونيتشه وفرويد والقليل جدا من نقدية كانط ، فكر تعامل فى نهاية التحليل مع الكائن الإنساني وكأنه لا يزيد علي قطعة لحم لا حضور له خارج وجودة المادي . إن " جورنيكا " بيكاسو - علي سبيل المثال - التى يهلل لها الجميع علي أنها رائعة من الروائع ليست فى الحقيقة سوي مانيفستو بارع لذلك ، حتى الكتابات الصوفية والروحانية تم إدراجها فى سياق الموضة ، وملحقاتها التجارية .

ما الذي نكتبه اليوم ؟ هذا هو السؤال الشرعي فى ظل ثقافة ما يسمي عصر ما بعد الحداثة ، وليس ما الذي نكتب عنه ، الكتابة عن ، أصبحت من مخلفات الزمن ، لم تعد القضية مجرد رد فعل ضد " الأرثوذكسية الماركسية " ممثلة بشكل أساسي بالجرانوفية وفروعها ، بل ذهبت أميالا بعيدا عن الهدف والغاية والمقصد والأمنية .

ليس المطلوب أن يبحث الكاتب عن قضية كي يعتنقها ، ولكن من الضروري ألا يتجاهل أو ينكر القضايا القائمة ، أن قضية الإنسان لم تستنفد بعض ، وعلي الكاتب أن يؤكد ذلك .

ثمة جيل جديد من الكتاب اليوم يعيش " لن نقول يتخبط " فى ظل هذه التركة ، والخيارات المتوافرة قليلة فى ظل هيمنة آلة الثقافة الحديثة السائدة وهي علي قلتها وضآلتها وهامشيتها تجعل تبنيها خيارا جسورا نحو تكريس الجيل الجديد بكل ما يحمل هذا المصطلح من أبعاد أخلاقية وجمالية وليس مجرد مصطلح تقني .

جريدة " القاهرة "
٢٠٠٠/٩/٢٤

مفتاح النهضة المؤجلة

لم ينته العرب أو يفرغوا منذ ما يقارب القرنين من الزمن من الإجابة عن السؤال النهضوي الأول : كيف نبني مجتمعا حديثا في عالم حديث ؟ ولم يفرغوا بعد من الإجابة عن الأسئلة التي تنبثق باستمرار عن هذا السؤال المحوري فلا هم أجابوا عن سؤال الهوية في عالم متبدل ولا هم عثروا علي طريق لكي يصلوا إليها . لم يعرفوا أنفسهم بعد ، ولم يتعرفوا علي الآخر تماما فيعرفوه ، لم يقرأوا واقعهم ولم يدركوا حداثة العالم ، ولا هم أدركوا " حداثتهم" الخاصة .

لقد ظل العرب علي امتداد قرنين من الزمن - هما القرنان اللذان شكلا ما سمي " عصر النهضة " واللذان أعقبا ستة قرون من الظلام الذي أعقب سقوط بغداد علي يد هولاكو عام ١٢٥٨ - خارج ذاتهم وخارج واقعهم وخارج العالم ، وبدأ ما سمي بـ " عصر النهضة " عصر أبدي السيادة علي مستوي الحلم ، وأحلام اليقظة ممعنا في الغياب علي مستوي الإنجاز أو التحول إلي واقع يتواصل حضورا في الواقع . فعاشه عرب ينامون ليحلموا ويحلمون في يقظتهم ، ولا يحلمون كي يغيروا الواقع .

وبدأ التاريخ العربي منذ دخول نابليون إلي مصر ، وعلي الرغم من بعض التحولات ذات الدلالة تاريخا انتقاليا هو تاريخ خارج التاريخ ، لأنه تاريخ من الانقطاعات التاريخية السياسية والايديولوجية ، تاريخ من النفي المطلق ، والإثبات المطلق ومن الأجوبة الجاهزة التي تغلق دائما أبواب السؤال ، فتكون أقفالا تغلق التاريخ ولا تفتحه ، وتكون أيديولوجيات نافية تكاد لا تنفي غيرها حتي تجئ أخري تنفيها ، وتكون مشاريع نهضوية شاملة تكاد لا تنهض حتى تنكسر ، تكسرها واحديتها ، وديكتاتورية السلطة التي تتبناها ، يكسرها فكرها الشمولي ، المطلق ، ونفيها للتعددية ، وكرهها العميق

للديمقراطية - ويكسرها استبدالها أنظمة للتابو الفكري والسياسي والثقافي والاجتماعي بأنظمة تابوية ثارت ضدها ، ويكسرها - إضافة لأسباب أخري تنبع من فكرها الشمولي وسلطويتها المطلقة - الحضور الدائم للآخر الطامع فى فرض نموذجه الحداثوى علي العالم - وما يتطلبه ذلك ويستدعيه من استغلال للشعوب وهيمنة علي مقدراتها وثرواتها ومن تتبيع للأنظمة الاقتصادية والسياسية ومحو الثقافات إلخ ..

إن اتسام التاريخ العربي المعاصر بالانقطاعات التاريخية السياسية والايديولوجية ، وبالتخلعات الثقافية بأوسع معانيها ، يكاد من جهة أولي ، يواصل تاريخا طويلا من الانقطاعات المشابهة التى وسمت التاريخ السياسي العربي الإسلامي ، حيث ينفي كل نظام النظام السابق عليه ، ويستند فى رؤيته للعالم إلي " الغزالي " الذي أعطي للحكام ايديولوجية السلطة ، وللناس ايديولوجية الطاعة ، وإلي مقولة معاويه بن أبي سفيان : " نحن الزمان . فمن رفعناه ارتفع ، ومن وضعناه اتضع " ، ويكاد من جهة ثانية يقف فى مركز الإجابة عن التساؤل الذي لا يكف عن توليد نفسه منذ قرون لماذا أخفق العرب جيلا بعد جيل فى إنجاز مشاريعهم النهضوية ؟ مثلما يقف فى خلفية استمرار المفكرين والمثقفين العرب حتي يومنا هذا فى تكرار الأسئلة التى كان رواد وقادة الفكر النهضوي منذ صدمة الحداثة وحتي خمسينيات هذا القرن . قد فجروها ، وحاولوا الإجابة عنها دون أن يتركوا إجابة نظرية عن الإشكاليات التي واجهتهم ، تاركين لنا إمكانية الاستمرار فى طرح أسئلة عصرنا الجذرية والبحث عن إجاباتنا الخاصة عنها بعيدا عن تكرار الأسئلة واجترار الإجابات .

ويبدو أن الانفجار الجديد للسؤال النهضوي العربي مع نهايات القرن العشرين ، وعلي مستوي الفكرة قد بدأ يتلمس وئيدا وئيدا قدرا من التواصل والصبر ورق الفكرية القابلة للتراكم والتطور والقادرة علي ردم الانقطاعات وتأكيد الحضور العربي فى التاريخ الحي ، عبر تقديم الإجابات ، وإعادة امتحانها ، والتفكير في المسكوت عنه واختراق التابو والاهتمام بالحاضر

ومشكلاته والمستقبل وممكناته والتأكيد علي التعددية الثقافية في الواقع العربي ، وإدراك ما تنطوي عليه من ثراء وخصوبة وغني يمكن توظيفها جميعا لإخصاب الثقافة القومية ، وتوسيع مجالها الحيوي في سياق صوغ مشروع جديد للثقافة العربية ، في إطار مشروع حضاري شامل ، يدخل به العرب القرن المقبل " سنعرض في مقالة مقبلة أحد هذه الانجازات القومية التي رعتها جامعة الدول العربية "

فهل يمكن للعرب أن يحققوا نهضة حلموا بها ، وما زالوا يحاولونها منذ قرنين ؟

إن الإجابة إيجابا عن هذا السؤال : تظل مشروطة بتحقيق ، التواصل الفكري والثقافي والسياسي أساسا ، وبتحويل المشروع إلي ثقافة شعبية وإلي عقل جماهيري يعمق حضوره في الحياة والواقع عبر قراءة مباشرة للأخير ، بلا أقنعة ، وعبر استجابة واعية للحاجات الحقيقية الأساسية للإنسان العربي الحالم دوما بالنهضة .

ولئن كان " عقم " الواقع العربي وتشظياته علي مختلف المستويات ، يجعل من الإجابة الإيجابية عن السؤال السابق نوعا من التفاؤل الساذج ، فإن انبثاق الأسئلة علي مستوي الفكر العربي والثقافة العربية وعبر تجليات شديدة التنوع وكثيفة الحضور يجعل من هذه الإجابة واحدا من ممكنات المستقبل .

فالعلوم عليها أقفال ومفاتحها السؤال والأسئلة وحدها تفتح التاريخ ولأن السؤال مفتاح المعرفة ، وبوابة الكينونة .

جريدة "العربي "
٨ / ٢ / ٢٠٠٠

(المشى فوق الاشواك) رياضة عربية

تتعدد الرقابات العربية بتعدد الدول والأقطار ، فمنذ وضعت دساتيرها الحديثة " بالمعني الزمني لا المعياري " لحظت فى بنودها أمر الكتابة والنشر ، كما لحظت معالم حدودها الجغرافية وأشكال أعلامها وألوانها .

وإذا كانت الحدود فى حاجة إلي جيوش ووزارات ودوائر خاصة بها فإن الكتابة أيضا فى حاجة إلي ذلك ، فكلفت وزارات الداخلية أحيانا وزارات الإعلام أحيانا أخري بمهمة الرقابة لحماية الجبهة الداخلية من التصدع وكثيرا ما كانت وزارات الدفاع تكلف فرقا من الجيش فى أوقات الطوارئ وما أكثرها بالتصدي لجيوش الكلمات المقبلة من المجهول .

لكن الرقابة الرسمية ولوائحها ليست الوحيدة المعنية بالكتابة فهناك الرقابة الأهلية - إذا جاز التعبير - التى تستمد الدساتير منها روحها فى صياغة قانونية يسهل الاحتيال عليها نظرا إلي حرفيتها واجتهادات المقيمين عليها ، خصوصا فى مجال ما يسمي الكتابة الإبداعية .

فالإبداع يخضع فى الدرجة الأولي لترويض أخلاقي منذ الطفولة تتكفل به الرقابة الأهلية أي التقاليد والأعراف الدينية والاجتماعية لذا يصبح الشعر مثلا أدب رقابة سواء فى خضوعه أوفى تحديه لهذه الأعراف .

أما الكتابة السياسية فتجد منفذها من الرقابة فى الخلافات العربية فما لا ينشر فى هذا البلد ينشر فى ذلك ، ما يحرمه هذا الزعيم يحلله آخر ويحرص عليه ، وتصبح هذه الخلافات ورقاباتها منفذا للكاتب السياسي ، ويتحول الوفاق إلي جحيم حين يتفق زعيمان أو أكثر وتفتح السجون للمعارضين .

ولا ننسي أن الأحزاب العربية بفكرها " الحديث " أسست رقاباتها

وأدوات قمعها التى لا تقل إرهابا عن أي رقابة أخري رسمية كانت أم أهلية، فباسم العلم والحتميات والتقدم والحداثة ألغي الماركسيون العرب كل من خالفهم الرأي ، وبعضهم اليوم تحول إلي اليمين ، ويستخدم العبارات نفسها لقمع أي معارض. بالأمس كانت موسكو وماركس واللينينية ، واليوم واشنطن والليبرالية ، وما بعد الحداثة . أدوات للانتشار إلي العصر ولمحاربة المتخلفين أي المعارضين وقمعهم.

ولأن الدول العربية الحديثة ورقابتها وجيوشها فشلت فى تحقيق بعض من وعودها فى الإنماء والتحرير والحرية ، لم يعد أمام الإنسان فى عالمنا سوي اللجوء إلي الغيب الذي يمنحه خيالا خصبا فى تصور التعليم الذي لم يتحقق علي الأرض .

والغيب هذا يحمل معه رقابته علي الواقع فى كل تفاصيله ، من المأكل إلي الملبس ، فضلا عن كل الكتابة التى تعتبر حكرا علي مجتهدين ومعلمين لا هم لهم سوي تقويم الأخلاق .

وإذا كنا بالأمس نتحدث عن رقابات عربية ، ونتحدث اليوم عن عدد أقل منها ، فالقادم فى الأفق ، إلي ما بين المحيط والخليج ، رقابة أهلية واحدة تستند إلي الاجماع والإجماع قوانينه غيبية وأكثر صرامة ولا منفذ معها للكاتب السياسي فى أن ينشر فى هذه الزاوية ضد تلك ، لا للمبدع أن يحتال ببعض من تحوير الكلام ، فالإنسان خلق لخدمة الدستور وليس العكس .

أجدني بعد هذا الكلام متوجها نحو قضية هي بذات القدر من الأهمية وعلي نفس الدرجة من الترابط مع ما قدم من وجهة نظر، وهي عندما تتساوي الديمقراطية والديكتاورية فالمثقف العربي المسكين الذي يعيش فى أوروبا ماذا يفعل بالحرية التى لم يشارك فى صنعها ؟

سؤال يتبادر إلي ذهني دوما كلما شاهدت أو قرأت نقاشا مستمرا حول قضايا أوروبية كالوحدة وأسعار السلع ، ومناهج الدراسة والدفاع والأمن

والمهاجرين ، ولا أنسي القضايا الفكرية والأدبية إلخ .. والعربي الذي يعيش في هذا المناخ لابد وأن تعنيه هذه القضايا بلا شك ، كما تعني غيره . لكن علي ما اعتقد تبقي مشاركته في النقاش حولها محصورة في حدود الكلام الذي لا يتحول إلي فعل فليس من مؤسسة يستطيع من خلالها إيصال صوته ، ولا من منبر يحمل هذا الصوت في إلي الأخرين والمحاولات القليلة التي حصلت في فرنسا مثلا - وما زالت مجرد بدايات لا نعتد بها .

وهكذا تصبح حال هذا المثقف العربي في مناخ الحرية شبيهة بحالة في بلاده ، حيث لا مجال للحوار ، ولا مؤسسات يستطيع من خلالها التعبير عن نفسه والتأثير في مجري الأحداث .. حتى وإن اضطر لأن يلعب الدور السابق عرضه في بداية كلامنا . هنا علي الهامش وهناك علي الهامش والفرق واضح بالطبع ، فهو في أوروبا غير مهدد بحجز حريته أو بالقتل ، أما علي مستوي الفاعلية فتتساوي الحرية التي لم يشارك في صنعها مع الديكتاتورية التي اغتصبت الحكم وفرضت عليه الهروب .

يضاف إلي ذلك أن أوروبا الديمقراطية ، غالبا ، تتحالف سياسيا مع الديكتاتوريات التي يحاربها فيتضاعف شعوره بالخيبة والهامشية ولا يسعني في هذا المجال إلا الإشارة إلي التحالف الدائم بين أوروبا و" الديمقراطية الوحيدة " في الشرق الأوسط أي إسرائيل التي كانت ديمقراطية علي حق حين قامت علي حساب الشعب العربي الفلسطيني واستمرت ديمقراطية وعلي حق أيضا حين طردت هذا الشعب ، وحين شنت حروبها وقتلت واحتلت أراضي وغزت لبنان وأقامت المستوطنات إلخ .

وإذا كان عدد من المثقفين العرب محصنين ضد الديكتاتوريات ويرونها علي حقيقتها مفضلين الهرب إلي أوروبا الديمقراطية حتي ولو لم يكن لهم فيها فاعليه ، فإن العاديين يفضلون بسبب العصبيات الوطنية أو القبلية وما إلي ذلك ، البقاء تحت تسلط الديكتاتور الذي يعرفون علي الخضوع لحرية صنعت علي قياس أصحابها ولخدمة مصالحهم .

أما علي مستوي النقاش الفكري فالقلة من المثقفين العرب التي تساهم

فيه تتعرض لحملات إعلامية فيها الكثير من العنصرية ، كما حصل ويحصل مع إدوارد سعيد الذي يطلقون عليه في أمريكا فيلسوف الإرهاب ويردد صدى هذه العبارة أكثر من صحفي أوروبي علما بأن أدوارد سعيد يستخدم المنهج الغربي في التحليل ويناقش أهل البيت إذا جاز التعبير في آرائهم بالإضافة إلي أنه يمثل نموذجا لمساءلة الخطاب الأوروبي الكولونيالي وما بعد الكولونيالي " ما بعد الحداثة .

·مرة أخري ماذا يفعل المثقف العربي في مناخ الحرية التي لم يشارك في صنعها ؟

إنه حر مشلول الحركة ، مقموع من دون أن تكون أن تكون هناك قوانين تقمعه أو تشل حركته كما يحدث له في بلاده .. بعيدا عن مراكز القرار من دون أن تكون هناك قوانين تمنعه من الوصول إليها مثلما يحدث له هنا أيضا .

أي عبثية هذه ؟!

جريدة " العربي "
٣ / ١ / ٢٠٠٠

نهوض الأوهام

فى النهاية تترجم الحرب إلي نشيد حماس .. ولو أردنا التعبير بطريقة أخري لقلنا إن الحرب التى ستتحول إلي مجرد نشيد ستجتاز العصور كضباب تدفعه الرياح ، تتوقف الحرب - أما النشيد فيتابع رحلته متنقلا من جيل إلي جيل حتى يولد بدوره حربا أخري ، بين حربين نتحسس جيدا خفة ذلك الكائن الهش : " السلام " ولا نكاد نمسكه حتى نجده تركيبا غير عضوي إلي حد التعسف بل هو اعتراف بأن الحياة فخ جميل .

وإذ يضعنا " السلام " دوما تحت الواجبات التافهة ، فيمنحنا عطلة طويلة تدخلنا فى عبودية الحياة المملة ، ونحن فى حال الحرب لسنا ملزمين بالتفكير فى الواجب اليومي كدفع الضرائب وإيجار مساكننا والذهاب إلي العمل ، أما فى حال السلام فقد رأينا فلاحين ذاهبين إلي " مكاتب السلطة " وهم لا يعرفون فى الغالب نور الكهرباء .. كما رأينا رجالا يحرسون المطارات وهم لم يركبوا فى الغالب أي طائرة .

فى الحرب تنمو العقلية النقدية والساخرة فتأخذنا إلي حد يصبح فيه المحرم حالة مباحة ، أما فى السلام فتأخذ العقلية المحافظة مكانها وتتمترس وراء كل شئ عادي وتقتل فينا شعلة التفكير الحر لتجعل منا آخر المطاف عبيدا فى خدمة " عظماء الحرب " الذين ماتوا ، فواقع الحال إذا كانت الحرب حالة يتم بليغ وثري ، فإن السلام لا يعدو أن يكون عودة هائلة للوصاية والأبوة وتراتبية النظام الأمني .

علينا أن نسأل : أيهما الاستثناء الحرب أم السلام ؟ ليس بالإمكان معرفة ذلك علي وجه الدقة وحتى الذين يهتمون بتلك المفاهيم وهم النخبة يتوزعون فى الرغبات الأكثر جنوحا ، وهو يشكلون هيئته " هيئة السلام " وتركيبه وتحسين هندامه وتسويقه ، وهم لا موهبة لهم ، إنهم تقريبا ينعمون بخيال متواضع يؤهلهم فقط للوقوع تحت طائلة الواجبات اليومية ..

إن تواتر الحروب ليس إلا برهانا علي أنها لا تحل شيئا ، وهوما ينطبق علي السلم أيضا . لقد أحصي المؤرخون ثمانية آلاف معاهدة سلام معروفة وقعت بعد ثمانية آلاف حرب وكان البدء من جديد واجبا جديدا وهو ما يعني أن معاهدات السلام ربما وضعت حدا للعدوان أو منحت هدنة كي يتكاثر النسل ، لكنها لا تنهي الحرب لأنها ملطخة بالعنف ومؤسسة علي نظرة سببية للحرب تصريحا أو تلميحا .

إن السلام الذي غالبا ما يصنعه من يسمون أنفسهم بالشجعان بعد أن يكونوا قد هزموا أو تعبو إلا يكون إلا بائسا فى نظر الغالبين والمغلوبين علي السوء وهم لا يمتنعون أبدا اعتباره " باطلا " ولا غيا فى أية فرصة تتاح لهم لأن مبدأ النسبية الذي يقوم عليه هو الذي يقوض أركانه ، أما الحرب التى تحظي دائما بمكانة لائقة فى الذاكرة وتستحوذ عند نهايتها علي ذاكرة أكثر من جيل ، والتى أعيدت مرارا وتكرارا ، فقد بلغت مستوي العادة أو " الطبيعة الثانية " حسب قول " هيجل " والاندفاع نحو الأمن أو السلام أو التعايش أو التصالح أو التوافق كان دائما بمستوي الإرتفاع نحو الحرب ، ففي المحطة الأخيرة ثبت أنه ليس ثمة حدود بين الحرب والسلام كما ليس هناك أية ضمانات للوصول إلي الأمن أو السلام الكلي والشامل والدائم فكلما توسعت الحدود من أجل الأمن والسلام مثلا - اضمحل الأمن - وكذلك السلام فالجغرافيا لها "رذائل كثيرة منها مثلا أن الجيران ليسوا إلا أعداء احتياطين أما التطور فرذائله أكثر : أن تجمع طاقات ضدطاقات أخري مجاورة كاف لإنهاء عهد من السلام وكذلك تفتيت طاقات بسبب تفسخ داخلي لطاقات أخري .

إن الأعداء إذ هم يكررون أنفسهم فلأنهم ، أولا : يذهبون إلي السلام وهم علي استعداد للحرب ويذهبون إلي الحرب وهم علي استعداد للسلام ، وثانيا: لأنهم يمعنون فى تشكيل الجغرافيا حسب أهوائهم بينما الأخيرة هذه غالبا ما تخونهم وتسخر من كل شئ وتجعل من التاريخ ذلك السيد المهيب عبدا لها وهنا نحن نري مرة أخري كيف أن الأعداء يكررون أنفسهم أو يخدعون

أنفسهم ولنا أن نسأل ما الذي يفعله هؤلاء الإسرائيليون والفلسطينيون ؟ خداع للذات أم خداع للآخرين ؟ الأرجح أن السلام ليس إلا خدعة جميلة غالبا ما تخبئ للبشرية خدعة قبيحة إذ كيف يملك أن تحظي دولة إسرائيل بسلام كامل ولا يحصل الفلسطينيون علي سلامهم الكامل ؟ ويصبح السؤال أكثر منطقية علي النحو التالي : ماذا تربح إسرائيل حين تعطي للفلسطينيين قسطا من السلام لكي تحافظ أو تحتفظ بداخلها بقسط من الحرب ؟ وماذا سيربح الفلسطينيون حين يقبلون بقسط من السلام لكي يغذوا به القسط الكامن بداخلهم من الحرب ؟

إذن السلام ليس إلا التاريخ السري للحرب ، حرب خمدت أو حرب ستندلع وللوصول إلي تلك الحقيقة المرة يجب اجتياز تجربة حمقاء بكاملها وحين تنتهي تلك الحقبة يجد السياسيون أنفسهم وقد بالغوا فى مقدرتهم علي التحكم فى دفة الزمن والحقائق لا تثبت وجودها إلا حين تكشف عن عكسها أو تتنكر لنفسها ومحتواها . ولأن السلام خدعة فهو كثيرا ما يبالغ فى تقديره والاحتفال به فنطلق عليه اسماء مثل النصر والحرية وعيد الأمة لكنه لا يعبأ بذلك بل هو يسخر من جميع المحاربين القدامي والجدد ويحتفظ بحق الضحك للغد علي البارحة .. ويثير الالتباسات وينمي النفاق ، إنه كآبة وصمت مقيت للغة اللغة ومن ينعم " بالسلام " ؟

فى كل مرة يثار هذا السؤال نجد أن الأموات هم الأكثر حظا لهذا لنعيم ذلك أن السلام يحولهم إلي فرحة جماعية وكثيرا ما يحصلون منه متحفا ضخما جدا للوسائل والأسلحة التى يقال إنها صنعته بينما هو فى الحقيقة ليس إلا جنازة غفيرة وكبري وأخيرة لتوديع من تبقي علي قيد الحياة من أبطال الحروب ، وفى المحصلة لقد مات أولئك الذين صنعوا السلام وسوف لن ينعم به إلا أولئك الذين لم يصنعوه . إن فظاعة الحرب لا تساوي شيئا أمام نذالة السلام .

وهكذا فى كل مرة حالما تنام الأحلام تنهض الأوهام .

جريدة " العربى " ٣ / ٤ / ٢٠٠٠

سؤال الثقافة العربية

فى ضوء الركام الهائل الذي تجمع حتي الآن ركام الأفكار والحريات السياسية والمؤسسات يبدو الحديث عن مشروع ثقافي عربي نوعا من البلاهة المتعمدة ، وتبدو حتي الإشارة إلي إمكانية وجود مشروع كهذا إضافة جديدة إلي موروث التخيل والتخييل ونحن الذين كنا ننظر بجدية إلي أمثال مسميات كهذه وتحمسنا ذات يوم لقراءة مجلدات مشروع استراتيجية الثقافة العربية " وضعته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فى أواسط الثمانينيات " وطالبنا المثقفين العرب بتصفح المجلدات الأنيقة وتصميم إيقاعها كما طالب غيرنا بذلك ، نشعر الآن أن الأمر لم يكن سوي حرث فى البحر وزراعة فى الهواء أو تمرين فى الإنشاء .

إن مقاعد المناقشات وجلسات الحوار التى أخصبت فى فكرنا مبادئ " القراءة الخلدونية " نسبة إلي " أبو خلدون ساطع الحصري " صاحب الأفق القومي تبدو الآن وكأنها كانت فى عالم آخر ، أو أنها لم تكن إلا حلماً فى ضوء هذه الكومة الهائلة من الركام الساكن . لغات ومشروعات وأحزاب وخطط وبشر وطرقات ومدن ، ركام لم يخرج علي طور دروس الإنشاء وتمارينها ، وأذكر أن طه حسين كان يطلق اسم الأدب الإنشائي علي الأدب الإبداعي وكنت أشعر بغرابة هذا الاسم لارتباط الإنشاء فى ذهني بالكتابة المدرسية ، وها أنا أكتشف الآن كم كان الوصف صادقا من حيث لم يقصد صاحبه ، فالعصر كله كان عصراً إنشائيا بالمعني المدرسي ولم يكن عصراً إبداعيا .

ولا أجد من المبالغة فى شئ ، ربط المشروع الثقافي العربي الذي يلح عليه أكثر من كاتب ومدرس فلسفة يدرس الإنشاء القديم حين كان الاستاذ يطلب منا كتابة موضوع عن أي شئ يخطر بباله أو يراه مناسبا " رحلة فى

الربيع أو زيارة لمدينة تاريخية . أو مطلع نشيد " فكلا الأمرين مصدره التوق والرغبة لا التجارب والاستقصاء والحاجة وهكذا فإن مشروع الثقافة العربية لا شأن له بواقع وجودها ككومة أنقاض في زاوية من زوايا هذا العالم . كما لم يكن من شأننا أن نعرف ونحن علي مقاعد الدراسة ، ما هو هذا الذي يريدنا الأستاذ أن نكتب عنه وهذا هو بالضبط ما أشعر به حين أقرأ ما يقال عن مشروعات ثقافية قومية أو قطرية وما إلي ذلك ففيها كل الأمنيات والأشواق ولكن تنقصها الوقائع والفعالية .

أول ما يبدأ به أي مشروع ثقافي بالإشارة إلي عظمة تاريخ الأمة وغني التراث والرسالة المطلوبة فى العصر الراهن ، وتحتشد بقية التقرير بما يجب أن يكون تأسيسا علي أمثال هذه المقدمات حتى المنطق الأرسطي المسمي بمنطق الشكلي لم يجد لدينا مكانا فلا ارتباط بين المقدمات والنتائج . بل اختراع لمنطق زائف مفاده أن الأمة التى أعطت في الماضي تستطيع أن تعطي فى الحاضر ولكن أين هي أمة الماضي ؟ أليست هي تلك الخالية التى لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ؟ وألسنا الركام الراهن الذي لم يجد مسماه الفعلي حتى الآن ؟ .

لا يملك المتأمل لأحداث العقود الماضية إلا أن يتساءل هل كانت الثقافة والسياسة وشتي الفعاليات فى عالم العرب مجرد تمارين إنشائية طوال ما يقرب من القرن ؟ وأين نضع إذن هذا الركام الذي نتعثر به أينما التفتنا ؟ وإذا لم يكن كل هذا دليلا إلي أننا " كنا " فماذا " كنا " وماذا " سنكون " ؟!

المعرفة الغائبة ..

سؤال الثقافة العربية لم يوضع موضوعه الصحيح لأن موضوعه لم يكن أساس الحاضر الملموس .. بل الأفكار والموضوعات - وفشل منهجيا منذ البداية لأنه لم يتجه نحو استثارة فعاليات المعرفة المعمقة بماهية هذا الركام الماثل .. أفكارا ومؤسسات وأشخاصا وجموعا بل اتجه لاستثارة حس بالتعالي والسمو علي اليومي والحادث والتاريخي والركون إلي الجوهر الخالد، وجدان متخيل لأمة ضائعة فى القرن العشرين وها هي تكاد تكون

جثة هامدة علي بوابة القرن الحادي والعشرين .

هناك أسئلة للهرب من بوابة الحاضر الخرب واستنطاق التراث بنوايا مسبقة . إما بتصوير جوانبه الحية وإنقاذها من النسيان وبالتالي إنعاش ذاكرة حاضر خرب . أو البحث عن نسب لنا فى منطوقيات الموروث ، وحجة النية الأولي ، كما يقال تحديد الحاضر وحجة النية الثانية ، كما يقول أيضا تأصيل الحاضر ولكن من الذي يجدد ؟ ومن الذي يؤصل ؟ أليس هو إنسان هذا الحاضر الضائع فى الحروب الإقليمية ، حروب العصابات والطوائف والأحزاب والمعازل والمهاجر ؟ الإنسان الباحث عن وطن آخر بعد أن تناقصت قدرته علي تلبية أبسط حاجاته سنة بعد أخري ؟ وأين هو هذا الإنسان الآن ؟

لم نصل بعد إلي التساؤل عن مشروع ثقافي نقدمه إلي العالم علي رغم أن البعض تطاول منذ وقت مبكر من هذا القرن ورغم أن لدي عرب اليوم ما يقدمونه للعالم غير البلطجة السياسية وفنون اللغو المعهودة ، وهذا أمر بديهي ومعقول لأن فاقد الشئ لا يعطيه ، ولا عبرة بتخيل ملكية شئ من الأشياء والتصرف علي أساس من هذا الخيال .. سواء تعلق الأمر بالثقافة أم بالسياسة أو الاقتصاد أو الأحلام ، حتى . قلة من الأفراد حاولت أن تأخذ علي عاتقها تصور المشروعات ثقافية شاملة أو جزئية ، مثل طه حسين فى كتابه " مستقبل الثقافة المصرية " والطيب تيزيني فى بحثه الذي وصل إلي ١٢ مجلدا ومحمد عابد الجابري فى كتبه " نحن والتراث " و " نقد العقل العربي " و " نقد الخطاب العربي " وحسن حنفي فى مشروعه الضخم " التراث والتجديد .. من العقيدة إلي الثورة " بأجزائه الخمسة ومحمود إسماعيل فى مشروعه الهام " سوسيولوجيا الفكر الإسلامي " وغيرها .. إلخ .

وأول مشروع يصدر عن مؤسسة علي حد علمي هو مشروع استراتيجية الثقافة العربية الذي أعدته لجنة خاصة تابعة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – عملت شهورا تسعة ضمن فريق العمل القائم عليه وحالت ظروف خاصة عن استمراري آسفا .

كل هذه الجهود طرحت نفسها من منطلق وضع تصور فلسفي لما يجب أن تكون عليه الثقافة العربية. باستثناء مشروع طه حسين الذي انطلق من تطور لما يجب أن تكون عليه الثقافة المصرية لا العربية ومهما كان من أمر هذه الجهود وتباينها أو كونها لم تأخذ طريقها إلي اتساع الواقع الاجتماعي الراهن، وظل هذا الأخير محكوما بأشباه مشاريع ثقافية مثلما هو محكوم بأشباه مؤسسات وجامعات ومراكز أبحاث حتى هذه اللحظة ولأسباب داخلية عميقة وليست خارجية كما دأب علي القول أشباه المثقفين. أول هذه الأسباب، افتقار المجتمعات العربية لمبدأ النمو اللهم إلا النمو السكاني الذي هو فعل من أفعال البيولوجيا لا الثقافة، وبسبب هذا الافتقار نجد المؤسسات والمشروعات والأفكار تولد وتهرم وتموت فى زمن قصير ولا تخلف أحفادا، وحتى معظم الدول القائمة تبدأ وتزول مع بداية وزوال فرد متسلط واحد فهي تصاب بفورة من الحيوية فى البداية ثم تبدأ بالترنح مع هرم المتسلط وقد تصاب بالخرف حين يبلغ أرذل العمر وكذلك الأفكار فحياتها أكثر عجبا، إذ هنالك القليل من يثب عليها من أصحابها بعد سن الأربعين والكثير منها يتناثر كما البذور فى الرمال الجافة فلا يتجذر ولا ينمو ولا يزهر. ولعل اضطرار الأجيال المتعاقبة إلي البدء من الصفر دائما علي صعيد التربية والسياسة والاقتصاد وحتى تشييد البيوت لدليل علي أن التجربة الاجتماعية لا تنمو كما هو حال التجارب فى المجتمعات الطبيعية. أو أن مثل هذه التجربة لا وجود لها فى الواقع وإن احتفظت بها اللغة المتداولة والحق أن الكثير من ألفاظ اللغة وتعابيرها تحول إلي ملجأ للعديد من المسميات التى فقدت مدلولتها منذ زمن طويل وبخاصة ألفاظ اللغة وتعابيرها تحول إلي ملجأ للعديد من المسميات التى فقدت مدلولاتها منذ زمن طويل وبخاصة ألفاظ مثل " الدولة " " المجتمع " " القانون " و " المواطن " ناهيك عن "التطور" و " التجديد " وربما نجمت خيالية أصحاب المشروعات القومية الشاملة أو القطرية الجزئية من تداولهم لهذه الألفاظ من دون أن يعلموا أن مدلولاتها لم تعد قائمة حقا فى الواقع الراهن، وأن ثمة مدلولات فاجعة مثل " العصابة "

و " التجمع " و " شريعة الغاب " و " المتهم " ناهيك عن " التحلل " و " الموت " كمقابل لألفاظ ماثلة فى اللغة وغائبة فى الواقع بدءا من " الدولة " وصولا إلي " التجديد " الآنفة الذكر.

وبسبب الافتقار إلي النمو فى الواقع ، وعدم دقة اللغة لا نجد مراكمة تاريخية للأفكار والمفاهيم والمشروعات والمؤسسات بل نجد طبقات من كل هذا متراكمة فوق بعضها البعض يلعن آخرها أولها ، ويزيل أخرها أسماء أولها من الوثائق والسجلات علي رغم ندرة التوثيق والتسجيل وكنا نعتقد فى الماضي أن هناك من يخفي الوثائق والسجلات فإذا الأمر علي خلاف هذا لأن أخطر الأحداث ما زالت تصنع مشافهة . اعتمادا بشرف المنطوق علي المكتوب ، والناظر إلي هذه الطبقات المتراكمة لن يجد بينها روابط بنوية مهما أجهد نفسه . فالترابط البنيوي سمة من سمات الخلايا الحية - ولكن لم يثبت حتي الآن أن هناك ترابطا بين خلايا ميتة .

وحدانية وبلاهة

ثاني أسباب سيادة الأشباه وفشل كل النوايا الثقافية الطيبة يكمن فى وحدانية السلطة فى العالم العربي وانحصارها بيد القابض علي زمام العسكر والشرطة والمخابرات ووسائل الاستيراد والتصدير بالطبع . فلا سلطة تعلو عن سلطة كهذه حتى سلطة " الحقيقة " ناهيك عن سلطة الثقافة وبسبب هذه الوحدانية لا يستمد أي مثقف أو مفكر أو حتى قارئ الأبجدية سلطته علي واقع وخيال الناس بمعزل عن أدوات سلطة كهذه وتسهيلاتها . إنه يعيش بها ولها إذا كان له أن يحقق وجوده أو يجني ثمرات بحثه وجهده فى مناكبها ، سلطة كهذه لا تسمح بوجود خطاب ثقافى مستقل أساسا ناهيك عن وجود فعاليات مجتمع مدني بمعزل عن علاقته المحورية بها ، وهي إن أحست المنافسة وأدركت أن لغوها لم يعد مما يلتفت إليه ، وانتبهت إلي ظهور بوادر خطابات مستقلة سارعت إلي فرز بعض شرطتها . وفتح منتدي للفكر لتجميع الأسماء اللامعة . أي سارعت إلي خلق الشبيه الذي يحل محل الأصل بالقوة إن اقتضي الأمر، هكذا يصحو الناس فجأة فإذا عتاة التسلط

أو بعضهم قد ارتدي ثياب المفكرين والمتأملين والباحثين والمتنسكين .

معني كل هذا أنه لا المثقف ولا المجتمع يمكن أن يوجد بذاته ولذاته ، إنه موجود بغيره ولغيره ، أي لسلطة بلهاء شهوتها التسلط والحكم ومراكمة الثروات والسهر علي سلامة أصحابها ، وقد أدرك الكثير من المثقفين هذه الآلية فاستقالوا من وجودهم منذ زمن طويل وعلقوه علي وجود السلطة . فنصب بعضهم نفسه ناصحا أو مستشارا لها واكتفي بعضهم الآخر بدور مقدم طلبات الزبائن علي مائدتها ولا تنبع وحدانية السلطة الموصوفة من قدر ما ، بقدر ما تنبع من الوقائع نفسها .. الوقائع التى لا يشف عنها خطاب الثقافة الراهنة من أكثرها حدة في النقد والتطرف وهي وقائع يمثلها انهيار الفعالية الانتاجية فى المجتمعات العربية إن إنهيار العلاقة بين الإنسان والموضوعات ونشوء وضع يصبح فيه توليد الإنسان لشخصية وتجسيدها محالا علي صعيد العالم الخارجي ويشمل هذا المحور كل الفئات والطبقات المفترض أن تكون جوهر المجتمع المدني .. ما يبقي بعد ذلك هو الحرية المطلقة لأي قاطع طريق يستولي علي السلطة ، حرية لا تحدها قوي اجتماعية ولا ضوابط ولا قوانين ولا ضواغط من حاجات أولية لبقاء ونمو المجتمعات وما هي حاجة مجتمعات كهذه للبقاء والنمو ؟ وما هي حاجة قاطع الطريق لبقائها ونموها ؟ إنه يتوحد ويوحد كل شئ فيه فرغبته يجب أن تكون رغبة التجمع كله ، وجهله يجب أن يكون جهل الجميع أنه يضع مجتمعات كاملة علي مثاله ومقاسه بالضبط .

شتائم وتسلية

ثالث الأسباب وهو سبب فرعي ينتج عما تقدم غياب النقد بشكل فاجع ونقصد النقد الأساسي - نقد الأساس المعرفي - لا الشتائم الصحفية التى ينهال بها مثقفو المهاجر والمعازل علي رأس الأنظمة والتجمعات العربية ، ومثل هذا النقد الأساس للبني الخربة وكومة الأنقاض سواء كانت أفكارا أم مؤسسات ، محرم من جانب وغير وارد من جانب آخر إنه محرم بسبب حظر التجول المفروض علي المثقفين فى التاريخ الراهن والماضي معا ، وهو

غير وارد لأن الذين يتصدون لتغير الواقع لا يحملون فكرا ولا رؤية بل شهوة للسلطة المذمومة نفسها ، ولأن الذين يفكرون لا صلة لهم بهذه الشهوة التى تجتاح الحياة العربية . شهوة القبض علي العصا السحرية لتغيير العالم تلك التى يمسك بها مهربو الأسلحة والمخدرات وسماسرة الصفقات التجارية ، يتزايد عدد المفكرين الذين لا وظيفة لهم سوي الترفيه عن المهربين والسماسرة فى أوقات ضجرهم .

لكل هذه الأسباب لم يطرح سؤال الثقافة العربية الجوهري عن مبدأ النمو والتراكم ودقة اللغة فى تسمية الأشياء وبمسمياتها حتى هذه اللحظة . إنه مؤجل بسبب أن شبه الثقافة هو ما يحتل مكانها فالمهرجان فعل تعويضي عن تحمل المسئولية الشخصية ، وفنون وصحف التسلية فعل تعويضي عن الفكر الحي ، وهكذا ، وتؤدي الاستعراضات أفعال التعويض وأفضل من يؤدي الاستعراض هو الشبيه لا الأصل .

حياة الركام هي تلك الحياة التى تتميز بأنها تكتظ بالأشياء وبالأفعال التعويضية ، إنها تلتقط أفكارا وتجمعها وتنثرها لتوهم بأن ثمة من يفكر ، وتراكم المجلدات وراء المجلات لتوهم بوجود المسئول والمسئولية ، وتحشد الناس وتفرقهم لتوهم بوجود المجتمع . ولكن تحت كل هذا الانتحال الفاضح يجري تدمير أبسط بديهيات الوجود الإنساني . أن يبدع الإنسان شكله حياته ومستقبله . وأن يتطور المجتمع جيلا بعد جيل ، أن يزول الشبه ويستقر الحقيقي ، أن تستعيد الثقافة سلطتها المفقودة وتبدع شيئا آخر غير كآبة الزنازين وذكريات الكوارث والنواح .

وهنالك الآن ثقافتان تختصران المشهد كله - ثقافة الشبه وثقافة النواح ولا وجود لثقافة الإبداع ، فالأولي سيدة المسرح التى توزع منوعات التسلية والفرح الزائف ، والثانية النائحة الأبدية علي حرية الثقافة - أما الإبداع أما ثقافة الحرية .. فما زال دون كل الأسئلة ذات السماوات الخفيضة جدا .

جريدة " القدس العربى "

٨ / ١٢/ ١٩٩٢

لغة الاحتراب ، والمدارس الأدبية

تكاد ظاهرة المدارس الأدبية والفكرية تنتهي ، بعد أن شهدت أوجها فى ستينات القرن العشرين . فالتيارات التى نشأت فى كنف الأحزاب السياسية خصوصا الأحزاب الماركسية ، بعد الحرب العالمية الثانية . إما بموت أصحابها أو بموت الأفكار التى تمحورت حولها .

هكذا لم يعد من السوريالية إلا الإسم وبعض القصائد أو الأفلام أو اللوحات التى يمكن لأي متابع أن يصنفها تحت عناوين أخري ، ولم يبق من المسرح العبثي أو مسرح العبث إلا عدد من المسرحيات التى أصبحت كلاسيكية شاهدتها أجيال وسوف تشاهدها أجيال أخري .

ومن الطبيعي أن تنتهي المدارس الأدبية إلي زوال فالتطور الذي يصيب الحياة لا يستثني الأدب أو الفكر. لكن الأمر، كما نلاحظ يتعدي انتهاء هذه المدرسة أو تلك إلي ظاهرة انتفاء وجود مدارس أخري تحل محلها ، أو تأتي كتطور طبيعي لها أو كثورة عليها .

هذه الملاحظة العامة لا تستثني الثقافة العربية ، طبعا ، إلا بعض تكتلاتها التى ما زالت تحترب ، مرة باسم الحداثة ، ومرة تحت شعار ما بعدها ، وتأتي كرد فعل علي الطروحات الأصولية التى تتمحور حول فكرة العودة إلي قرون مضت ، وهي علي كل حال تكتلات طابعها الغالب سياسي لم تنتج سوي بعض النصوص الهزيلة ، كأن كاتبيها يحاولون اكتشاف التفكير من جديد ، كما يحاول أحدهم اكتشاف الكهرباء غير عابئ بما آل إليه هذا الاكتشاف من تطور عبر الزمان .

ولأن طابع هذا الصراع نصى نجد المحتربين يعودون إلي كتب مراجع ويكثرون من أسماء الأعلام ، فيعيدون ما أنتج سلفا فى طابع هزلي معظم الأحيان . . كأن يعيد أحدهم ما كتب عن العرب والفكر العربي فى أوروبا

القرن السادس عشر ، مثلا ، فيقع فى العنصرية التى يحذر منها ، أو فى التعصب ضد شعوب بكاملها ، كأنها كائنات تاريخية تصخرت وما عليه سوى وصفها واستنتاج حركيتها من خلال مبادئ عامة كبرهان علي صحة هذه المبادئ ، فينتقد أحدهم قصيدة مستخدما المنهج الماركسي بميكانيكية اشتهرت عربيا فى الستينات من القرن الماضي وما زال بعضهم متمسكا بها، فيدرس فيها فيها الوضع الطبقي لكاتبها ومنهجه بالبرجوازية أو يثنى علي نضاله في سبيل الطبقة العاملة والمسحوقين برغم زوال الطبقة العاملة ، واتساع شريحة المسحوقين ، هذا النوع من النقد لا يري واقع الكتابة بتعقيداتها التى تتجاوز حتى كاتب النص نفسه .

ولأن العصبية العشائرية ما زالت متفشية بين مثقفينا ، نجد حروبهم لا تنتهي ونصوصهم تقتل الخصم بدلا من أن تحاوره . فالكلمة سلاح ماض ، حسب المثل السائر ، والسيف وسيلة للقاء ، يشهرونها للدفاع أو للهجوم ، تماما كما كانت الحال فى الشعر الجاهلي ، والطريف أن الأمر لا يقتصر علي من نطلق عليهم لقب الأصوليين ، فالأصولية بمعناها العصبوي لا تقتصر علي رجال الدين أو علي الفكر الديني ، بل تتعداهم إلي خصومهم الذين يكتبون عصبيتهم ، أحيانا ، بلغات أجنبية يفترض أنها تجاوزت زمن الاحتراب .

انتهت المدارس فى العالم لأن زمن الحزبيات بالمعني الضيق للكلمة انتهي، وبرز الكاتب الفرد الذي لا يدعي رسالة ولا يسعي إلي القضاء علي أعدائه .

أرى " سلفادور دالي " يضحك ضحكته الشهيرة بعد أن خرج علي السوريالية ، ولم يحاول تشكيل تيار بديل .

جريدة " القدس العربي "
١٩٩٦ / ٧ / ٣

بين الأذن والعين

لابد للعين من مسافة تفصلها عن موضوع رؤيتها ، فإذا " التصق " الموضوع بالعين ، فهي لن تتمكن من رؤيته ، أما الأذن ، فعلي العكس من ذلك ، تستلزم القرب ، وكلما ازداد الصوت اقتربا كان سمعها أوقع ، العين حاسة المسافة والابتعاد والانفصال ، أما لأذن فحاسة المباشرة والقرب والاتصال ، لا عجب إذن أن تقترن الرؤية بالانعكاس والتفكير ، والبصر بالبصيرة ، والنظرة بالنظر ، والعين بالعقل ، وأن تقترن الأذن بالنقل والحفظ والذاكرة .

من المأثورعن فرويد لقريبها إن الأذن حاسة أولية ، وهي كذلك فى أكثر من معني ، فهي أولية تعربها من بادئ الراوي ، ثم هي كذلك لأنها الحاسة الأولي التى تربط المولود بالمحيط الخارجي . فنحن نسمع قبل أن نري ، والأذن حاسة الليل والظلمة ، أما لعين فحاسة الصباح والنور ، وهي لا تري موضوعها رؤية جيدة ، إلا إذا استطاعت أن " تثبته " وتحدد أبعاده ، إنها حاسة المكان ، فيما الأذن حاسة الزمان ، والثقافة التى تعتمدها ثقافة تاريخ وسرد ورواية ، ثقافة شفوية لا ثقافة الكتابة والصورة .

وعلي رغم التعقيد المظهري الذي تظهر به حاسة الأذن واللف والدوران اللذين يكتنفانها ، فهي دوما مفتوحة ، مستعدة للالتقاط ، إنها حاسة "التلقي " ، بينما العين علي رغم صفائها قادرة علي أن تغلق نوافذها من حين لآخر، ثم إنها تخضع موضوع رؤيتها للقلب علي شبكتها ، إنها لا تمر إلي موضوعها إلا عبر لف ودوران وانعكاس وتفكير.

والظاهر أن اللغة العربية ليست هي وحدها التىتقرن العين بالتفكير والأذن بالأخلاق ، فنقول " صوت الضمير ، وعين العقل " يقال أن اللغات

الاغريقية واللاتينية والجرمانية كلها تربط الصوت بالضمير والسمع بالطاعة، والأذن بالرضوخ .

لا عجب إذن أن تكون ثقافة الأذن ثقافة السمع والمحافظة ، أنها ثقافة الوثوقية والتقليد ، ثقافة ترضخ للصوت - المنبع ، ولا تبتعد عنه بما يكفي كي تعمل فيه " فكرها " ثقافة الأذن هي على الدوام ثقافة سلطة ، كل سمع طاعة .

أما العين فلما لها من قوة قلب ذاتي علي شبكتها ، ولما لها من قدرة علي تعديد منظوراتها وزوايا نظرها ، تجعل الثقافة التى تعتمدها ثقافة نقدية تسلم منذ البداية ، بأن التأويل يتعدد وأن المنظورات تختلف ، وأن كل معرفة تصحيح لأخطاء ، وأن كل علم تسبقه أيديولوجيا تقلب الأمور" مثلما تقلب الموضوعات علي شبكة العين .

جريدة " القدس العربى "
١٩٩٨/١١/٧

ديناصورات منقرضة وتماسيح ذليلة

ومن يقوم بالتغيير ؟!

التغيير سنة الحياة ، والتطور شأن بشري منذ وجد الإنسان علي وجه هذه الأرض ، والعاجز عن التغيير هو ذلك المتحجر ، كما حدث لامرأة لوط وبناته عندما تحولنا إلي تماثيل من ملح .

والفكر البشري عرضة للتغيير الطبيعي طالما أن العقل البشري قادر علي إعمال أدواته النقدية بكل الظواهر الاجتماعية من سياحة واقتصاد وثقافة وما إلي ذلك ، والفكر الذي لا يتطور هو فكر متحجر أيضا ، عاجز عن مواكبة المسيرة الإنسانية الحياتية ، وفي كثير من الأحيان يلعب دورا معرقلا وهداما .

والعقل هو طريق الإيمان والهداية والاقتناع ، وليس أروع من هذه الايات القرآنية للتدليل علي أهمية العقل فى الوصول إلي اليقين : " وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكونن من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأي كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين . فلما راي القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأي الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إن برئ مما تشركون " (سورة الانعام ، الأيات ٧٥ - ٧٨) .

ونمر اليوم بمرحلة من المتغيرات العاصفة التى تدفع المفكرين والمثقفين إلي إعادة نظر جذرية بمجمل المنظومات الفكرية والسياسية السائدة فى عالمنا العربي منذ مطلع القرن العشرين علي الأقل ، وهي إعادة نظر ضرورية وملحة إذ أردنا لحياتنا الحضارية أن تواكب العصر وتدخل القرن الواحد والعشرين من دون أية عقدة نقص أو عقدة تعالي فى العلاقة مع الآخر الذي بات أقرب إلينا من حبل الوريد .

وبتنا نشهد بالفعل إرهاصات أولي لإعادة النظر يمارسها بعض كبار المفكرين والمثقفين العرب من خلال وضع أوضاعنا العامة تحت المجهر النقدي انطلاقا من الثقة المطلقة بقدرات الشعوب العربية علي الخروج من

مأزقها الراهن ، والهدف من عمل هؤلاء الكبار المساهمة في عملية التغير الاجتماعي في ضوء المستجدات المتلاحقة من غير أن نتغرب عن جذورنا التي كانت جزءا أساسيا من هويتنا الوطنية ، واستطاعت المحافظة على ذاتها في وجه الهجمات البربرية المستمرة منذ المغول وصولا إلي الصهيونية ومرورا بالحروب الصليبية المنهكة .

لكن مما يؤسف له أن يعطي الأصوات المنكرة (فرخ) كالفطر علي هوامش المنهج النقدي لكبار المفكرين والمثقفين العرب ، وأخذ يملأ الدنيا صراخا وضجيجا داعيا التغيير الراديكالي لمجرد التغيير فقط ، من دون أن يتقدم ببدائل عقلانية يتقبلها المجتمع المتحرك نحو تحقيق ذاته وليس فقط ارتداء حلة غريبة فصلها الأخرون علي مقاييسهم ، ويريدهؤلاء (الصغار) أن يفرضوها بالقوة (الديمقراطية) علي الناس .

التغيير، أي تغيير يبدأ من الذات . والتطوير أي تطوير ينطلق من مسلمات تشكل الشخصيات الاجتماعية للهوية التي نسعي إلي تطويرها ، وأية محاولة بتجاوز الذات تزييف المسلمات لن يكتب لها النجاح الفعلي ، اللهم إلا إذا كان الهدف الحقيقي من وراء هذه الممارسة إلغاء الذات المعرضه للهجوم لصالح الآخر صاحب هذا الهجوم .

من الصعب علي أي كان أن يقاوم التغيير والتطوير وإلا أصابه ما أصاب الديناصورات التي عجزت عن التأقلم مع المتغيرات المناخية والبيئية قبل ملايين السنين ، فانقرضت . لكن من غير الطبيعي كذلك أن نكون كالتماسيح شقيقة الديناصرورات تلوذ بالتراب من أجل أن يكتب لها البقاء الذليل .

مسيرة التطور ، علي هذه الأرض لا يختصرها الديناصور المنقرض ولا التمساح الذليل ، بل يسجلها الإنسان بقدرته علي تحقيق ذاته الأصلية في مختلف الظروف والاوضاع ، واليوم أكثر من أي وقت مضي ، تحتاج بلادنا إلي هذا النوع من الرجال .. الرجال حقا .

جريدة " الجمهورية " اليمن ١٩٩٠/٣/١٠

فنانو جلد الذات

مشكلة العرب والمسلمين فى نظير صادق جلال العظم فى آخر ما قرأت له من كتب ، وهو كتاب " ذهنية التحريم " سلمان رشدي وحقيقة الأدب ، أنهم لا يعرفون " حقيقة الأدب " ولا يعرفون أن الحكام والمتسلطين تلاعبوا بالمقدسات قديما ، ويرجع ذلك إلي " تخلفهم الذاتي " مما سهل أن يخدعوا عن " حقائق " سلمان رشدي الأديب التحرري ، فلا يلتفتون إلي " المقاصد " الاستراتيجية لرشدى . ولا إلي " الحقائق " التى عرضها المؤرخ الكبير الآخر سليمان بشير فى كتابه " مقدمة فى التاريخ الآخر " يسوغ ما كتبه رشدي فى " الآيات الشيطانية " إنه يكتب رواية وأدبا ، لا تاريخا ، ثم إنه حتى بمقاييس التاريخ فإن " قصة الغرانيق " تقول ما قاله رشدي وزيادة . ولكي توضع الأمور فى نصابها . فإن جلال العظم الفاهم للأدب والتاريخ وللصراع مع الامبريالية جاء فى الفصل الأخير والأطول من كتابه ليوضح للعرب والمسلمين كم كانوا متخلفين وكم ضحك عليهم اليمين الجديد فثورهم علي رشدي بينما كان عليهم أن يحيوه ويرحبوا برؤيته الروائية لتاريخهم الأول . لذلك قص عليهم تعليما لهم لوجه الحقيقة ، وحقيقة الأدب والتاريخ . وقائع ضلالهم وكيف أقتيدوا كيدا واستغفالا إلي مصيدة الهياج واستصدار الفتوى ضد رشدي والحكم عليه بالموت ، أراد العظم إذن أن يفهم المسألة فى أفقها الأوسع بعيدا عن المقدس والمدنس ، وعن التغرير والتبرير لكنه شأنه فى كتابيه السابقين" دفاعا عن المادية والتاريخ " و" نقد الفكر الديني " وقع فى ما نعاه علي الآخرين ، أي فى التغرير والتبرير وخضع لنزعة التعالم والإعلان فهو يعرف كما نعرف أن الموضة فى الغربيين الأوروبي والأمريكي اليوم الحملة علي الإسلام باسم الأصولية ، أو باسم الإرهاب ، وعلي العرب باسم الإسلام ، وتنال هذه الحملة أول ما تنال من الأقليات الإسلامية المتناثرة فى

عوالم الغرب ، ولذا فقد فهموا - محقين أو غير محقين - أن النيل من المرحلة التأسيسية للإسلام وشخص النبي " صلي الله عليه وسلم " نيل من احترامهم لأنفسهم من جانب واحد منهم ، ومشاركة فى الحملة علي إنسانيتهم ونديتهم ، أما الفتاوي ووجوه السخط فى العالمين العربي والإسلامي فحواش علي هذه الواقعة ، وتتصل بالسياق نفسه - سياق الاختلال الشديد للعلاقة مع الغرب لمصلحة هذا الأخير ، فالمسألة ليست مسألة وعي مغلوط يحتاج إلي تصحيح وتقرير ، ولا مسألة تخلف يحتاج إلي " جدلية " للإيقاظ والتحرير ، لقد سبق لصادق جلال العظم أن نعي علي إدوارد سعيد وبغير حق قوله فى كتابه " الاستشراق " بالجواهر الثابتة للثقافات والأديان والأحداث ، لكنه هنا يقع من جديد فى مانعاه عليه عندما يتصرف ، استنادا إلي لا تاريخية سليمان بشير وغيره ، إلي إيضاح " حقائق " النص القرآني ، والإسلام بطريقة الجواهر الثابتة عينها ، أين هي " السيرورة " التاريخية والجدلية فى العودة إلي " مرويات النهج الخارجي فى تأمل النص التى تمس بطنه بنية ذلك النص ؟ ، وأين هو التاريخ فى الزعم أن الأمويين صنعوا كل شئ ، النص والأمة والدولة والتاريخ ؟ وكيف يسلم المسلمون قاطبة بهذا النص وذلك التاريخ علي اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ما دامت " مرويات " بشير والعظم علي هذا القدر من التاريخية ؟ وكل ذلك لإيضاح حقيقة الأدب والتاريخ لهم وإخراجهم من أسطوريتهم وتخلفهم ؟

لا علة لصنيع العظيم هذا ، الصنيع غير العلمي وغير التاريخي ، غير نزعتي التعالم والإعلان ، إن المجدي فى مثل " الحالة " التى نحن فيها وعليها لا التربيت علي الذات ، ولا جلدها ، بل وضع الأمور فى سياقها ، وتحليل وجوه اختلاف العلائق فى عالم اليوم ، وآثار هذا الاختلاف فينا وعلينا ، وأما ما اجترحه العظم فليس غير جلد للذات ، بعد إخراجه نفسه من الأمة كلها : ألم يعظنا بالطريقة نفسها فى إعلانه الآخر : نقد الفكر الديني ؟

جريدة " القاهرة "

٢٠٠٢/٥/١٤

عناصر متناقضة وكتلة واحدة

الموقف من الثقافي / السياسي

إذا كان موضوع السياسي / المثقف، والمثقف السياسي قديم، وقديم جدا، كما وأن الإجابة عن تلك الثنائية ليس بالأمر السهل أو الهين، وإذا كنا لا ندعي أو نزعم أننا أو غيرنا نملك حلا سحريا لهذا الموضوع، وبرغم أن انحيازات واختيارات تحدث لهذا الجانب أو ذاك فإن، الموضوع يتعلق بهموم وقضايا المثقف السياسي، واهتمامات السياسي المثقف وشواغله، ويتعلق في نهاية الأمر بتلاقي السياسة مع الثقافة أو تقاطعهما.

ونحن في مرحلتنا الحاضرة العربية المتشرذمة المتهالكة نقف وربما للمرة الأولي بقدر من الجدية والخطورة أمام ما هو قادم من جواب سياسي علي أسئلة تاريخية، فما هو دور المثقف الذي حمل هذه الأسئلة، وعبر عنها بمختلف أنواع الإبداع منذ بدايات القرن العشرين حتي يومنا هذا ؟ ويبدو أن الزمن العربي المتاح لنا للتعامل مع هذه الأسئلة، وتحديد أسلوب التعامل معها والموقف منها ليس زمنا عاما ومفتوحا. بل هو أقصر مما نتصور، فالتحركات السياسية التي جرت بالمنطقة، والتي تجري أيضا، وعلي صعيد دولي توحي بأن حلولا قادمة تطرق الأبواب، وهكذا يقول الغارقون في بحر التسوية السياسية التي هي ليست تاريخية بالتأكيد، وجري، ويجري تقديم هذه الحلول بأشكال احتفالية، ويطلق عليها وصف الإنجاز ضمن مقاييس وموازين قائمة عربية واقليميا ودوليا.

وبغض النظر إذا كانت كلمة انجاز قد اعتبرت وصفا ملائما لما يمكن إطلاقة علي تلك الحلول، وبغض النظر عن أي إنجازات فعلية إن كانت ستجد القبول والترحاب من أبناء هذه الأمة المستباح وجدانها كما هو مستباح ترابها. إلا أن هذا الإنجاز وإن كان سيعطينا بيد فإنه سيأخذ منا بأياد أخري كثيرة، وإن كان سيعطينا شيئا. فمن البديهي والمحقق أن هذا

الشئ لم يكن مجانا ، ولن يكون بل كانت استحقاقا ، وستكون . تقترب منا بنفس درجة الاقتراب لما يسمي بالإنجاز.

وإذا كان فينا من سياسي ملزم بدفع هذه الاستحقاقات . فإن الثقافي فينا يقف علي مفترق أسئلة .

- فما هو دور المثقف إزاء ما يجري ويستجد ؟

- وهل دور المثقف التبرير لما جري ، ويجري ؟

- وهل دوره كلمة (لا) يقولها وينزوي فى ركنه مستريح الضمير ؟

- وماذا عن هذا المثقف المنغمس فى وحل العملية السلمية حتى أذنيه المسدودتين ؟

قبل طرح أسئلة كهذه - وهي بلا شك محرجة وتتزايد لابد أن نوضح أن السياسي ليس فى دائرة اتهام ، ولكن هو أمام لحظة اختيار . فى مواجهة مشروع وبرنامج يتعامل مع واقع ربما لم يكن له دور فى صنعه ، وحين تتبدل الأحوال - ومن شأنها التبدل - فإنه يتحرك فى ضوء ما أتي به التبدل ، وقد يكون عليه أن يسهم فى تغيير تلك الظروف ، لكن لا يعني هذا أنه ليس معفيا من دفع استحقاقات ما فى نهاية الأمر ، وهذا الاستحقاق الآن مفروض علينا .

- فهل ينال السياسي مباركة الثقافي ؟ أم أن علي الثقافي أن يحاكم السياسي ؟

وفى الأخير إننا أمام معادلة تلقي علي السياسي التعامل مع اليومي ، وتحمل الثقافي مسئولية المبادئ وحراسة الحق التاريخي وربما كان رجل الإعلام المهتم والمشغول بالتفاصيل اليومية هو الذي يرافق السياسي ، وهو بهذا المعني سياسي يدخل منطقة التكتيك ، ويقاتل لإبراز هذا الموقف وتسويفه ، والرد علي ذلك السؤال وتفنيده .

والخطر كل الخطر يبقي فى الخلط القائم بين الإعلامي والثقافي . برغم أن أدواتهما المباشرة واحدة .

فالمثقف يضع أمامه هدفا بعيدا دائما ، ويوظف قدراته الإبداعية للحفاظ علي هدف استراتيجي :

أما رجل الاعلام السياسي فهو ملزم بتقديم أجوبة بحجم الأسئلة المطروحة ، وإن كان لا يحق لأحد اتهامه بالتنازل عن الهدف الاستراتيجي ، ويكون غالبا فى مأزق كطالب فى الامتحان . حين يكون أمامه سطر صارم يقول : أجب بنعم أولا .

وقد دارت العجلة السياسية ضمن معطيات راهنة وبمتغيرات دراماتيكية عربية ودولية ، وأصبح السياسي العربي والفلسطيني منه علي وجه الخصوص مطالب بأبهظ نعم فى تاريخ قضية العرب المركزية ، ومهما كابرنا ، ومهما ما طلنا فى تقديم جواب ، فإن استحقاقات لاعلاقة لها بالحق فرضت نفسها علينا دون أي لف أو دوران .

وأيا كانت التبريرات أو التفسيرات التى استخدمت فى وصف الحالة فإن موضوع الاعتراف بالعدو لم يعد مطروحا فقط . بل أصبح قائما ، وكذلك موضوع التطبيع . برغم حوائط الصد العربية جماهيريا المقامة حتى الآن . سواء علي المستوي الفلسطيني أم علي المستوي العربي .

قد يضع السياسي لنفسه خطوطا خضرا . يجيز لنفسه أو يجوز له أن يسمي ما يقوم به مناورة تكتكية فى معركة طويلة ، وأن يضعه فى إطار هدف مرحلي .. ربما . لكن تبرير ذلك أوتسويفه وقبوله محكوم بضوابط أساسها أن يتوفر للمرحلي الحد الأدني الوطني ، ويوظف المرحلي لخدمة الاستراتيجي وتحقيقه فى المدي البعيد ، ولا يكون بديلا عنه أو لاغيا له ، وبحيث يظل باب المستقبل مشروعا ، ويبقي الجسر بين الحاضر والمستقبل موصولا .

انطلاقا من هذا المعني يكون ميدان المناورة أمام السياسي ليس مفتوحا علي مصراعيه ، وحريته فيها محدودة .

أما الثقافي فإنه محروم حتى من الهامش الضيق في المناورة .. إذ لا يوجد

فى قاموس الثقافة كلمة مناورة . فهناك مناورة سياسية ، ومناورة إعلامية ، ومناورة عسكرية ، ولكن لا توجد مناورة ثقافية ، والمثقف فى تعاملاته كلها يتعامل مع قيم مطلقة لا يمكن تجزئتها إلي مراحل وأجزاء .. هو حامل راية الحق التاريخي ، ومدافع عنه ، ومهمته قائمة فى أن يستخدم أدواته كلها وكافة أشكاله الإبداعية للتعبير عن هذا الحق وحمايته وإحاطته بسياج من المحرمات التى تمنع المساس بقدسيته .

وإذا كان علي السياسي أن يحرق دمه بحثا عن صيغة أقل الخسائر مقابل أفضل الممكن . فإن الثقافي الذي هو ذاكرة الأمة وطليعتها ووجدانها والحارس الأمين لروحها لا يمكن أن يكون شريكا له فيما هو مضطر لعمله أو مجبر علي القيام به .

فالعدو مثلا يسعي جاهدا إلي تطبيع علاقاته مع العرب ، ويعمل علي دفن شعار قومية التحرير ليحل محله شعار قومية التطبيع . الأمر الذي يلغي جدوي البعد القومي أصلا . بحيث تصبح الأرض العربية من محيطها إلي خليجها ساحات متفرقة تقيم علاقات منفردة ومتفرقة مع العدو الصهيوني وفيما بينها .

والخوف كل الخوف أن يكون القادم المظلم تصبح معه العلاقات والصلة بين هذا العدو وبين بعض الأقطار العربية أفضل من صلات هذه الأقطار بعضها ببعض ، وكما هو الحاصل فى العلاقة مع الامبريالية الأمريكية الذي هو فى نظرنا العدو السوبر ، وفى هذه الحالة والتى لا نريد لها أن تكون . ما هو دور المثقف العربي عامة والفلسطيني علي وجه الخصوص ؟

هل يمكن أن يكون الجسر الذي يعبر عليه قطار التطبيع الإسرائيلي العربى ، وهل يمكن أن يكون القاطرة التى تقطر هذا القطار ليطوف به البلدان العربية لتسويق بضاعته ؟ .

وماذا يقول هذا المثقف لأشقائه من المبدعين والمثقفين العرب ممن حمل معهم راية النضال القومي ، وتولي وإياهم حراسة التراث الثقافي والفكري

والإبداعي لهذه الأمة ، وجعلوا معا من فلسطين وقضيتها رمزا للقيم النبيلة في تاريخنا العربي وعصرنا ؟

المثقف الفلسطيني يزداد موقفه صعوبة ومشقة وهو يري حلا يجري ترويجه في حالة قبول العدو علي مقايضة جزء من الوطن التاريخي للشعب الفلسطيني بجزء آخر منه ، وحل مشكلة جزء من السكان علي حساب حقوق ومستقبل الجزء الآخر ، وتقسسيم الشعب الواحد إلي داخل وخارج عرب ما قبل التقسيم ، وعرب ما بعده ، ووضعهما في حالة تعارض .

إن مسئولية المثقف العربي تمنعه من انتظار وصول نتائج كهذه من أجل أن يقول كلمته التي هي أمانة الأمة ، وأنه ملزم بالتذكير الدائم بأن ابناءنا الذين لم يولودوا بعد لم يفوضونا بالتنازل عن حقوقهم الوطنية الكاملة .

لهذا يكتب الروائي والشاعر ، ويرسم الرسام ، ويغني المغني ، وينتج السينمائي والمسرحي ما يعمق نهر التاريخ العربي الردئ ، ويوقظ ذاكرة الأمة دوما بتأكيد المثل الشعبي القائل " ماضاع حق وراءه مطالب " .

وهل لنا أن نأخذ من عدونا نفسه.مثالا ونموذجا ؟

لا مانع

فرجال السياسة في اسرائيل برغم تشددهم يأخذون ويعطون بنسبة ما في المجال السياسي .

لكن مفكريهم وفنانيهم ومؤرخيهم والأدباء منهم لا يتراجعون عن مصطلح أرض الميعاد . أو اسرائيل الكبري .

فكيف يكون المتمسكون بهذه الخرافة علي هذه الدرجة من التشدد وحراس الروح الوطنية والقومية فينا من مثقفين ومبدعين غير ذلك ؟

ربما ظهر أن الجانب الاستعماري في المشروع الصهيوني قد طرأت عليه بعض التغيرات نتيجة للتغيرات والتطورات الدولية مما قد يوحي للبعض أن هذا المشروع يتزعزع ميدانيا لكن الجانب التلمودي والتوراتي فيه لم يتزعزع ، ولهذا فنحن في حلبة صراع وجودي من أعقد عمليات الصراع في التاريخ

الإنساني ، الأمر الذي لن يحله جولة أو جولتان فى عراك طويل .

ولهذا لا يمكن للمثقف أن يبرر ما يجري ، ولن المثقف فى داخله سياسي

ولهذا لا يمكن للمثقف أن يبرر ما يجري ، ولأن المثقف فى داخله سياسي بقدر ما فإنه من غير المنطقي أو الإيجابي الإستسهال فى عملية اتهام مجاني ، ولا الانسحاب تحت شعار الهرب بالطهرانية الوطنية والاكتفاء بتميمة - لا - .

وإذا كانت الظروف والمعادلات السياسية وموازين القوي الراهنة وبما فيها الأوضاع العربية المقلوبة لا تسمح بترجمة هذا الشعار إلي واقع فليس من المنطقي أيضا أن يلغيه ، ولا يلغي إمكانية توفر شروط تحقيقه فى المستقبل ، وهنا تكون مسئولية المثقف فى استخدام أدواته ووسائله الإبداعية لتغيير الراهن وصناعة شروط المستقبل التى تحمل فى طياتها خلق جيل تحقيق الحلم .

وإذا كان المظهر الخارجي لهذه المعادلة يقوم أو ينطوي علي تناقض بين الثقافي والسياسي . فإنه تناقض العناصر الذي يصنع وحدة الكتلة .

ولا تكون وحدة الكتلة هذه بإراحة المثقف لضميره بأن يطلق صرخة فى واد أو حجر يرميه فى ماء راكد بين فترة وأخري .

بل يكون .

بإصراره علي الحق التاريخي الذي يصنع من الوجدان الجمعي قوة مادية ترشد السياسي وتحميه ، أو حتى تتصادم معه فى لحظة ما .

وليس إلا الاحتكام إلي المبادئ . وإلا تعميق الديمقراطية والتى لن يكون هناك كلمة مما تقدم . إذا لم تكن هي الشروط الأول الذي يحكم علاقة الثقافي بالسياسي ، والسياسي بالثقافي .

ورقة مقدمة للمائدة المستديرة بجامعة ناصر

طرابلس / ليبيا / ١٩٩٧/٧/٢٥

إبراهيم جاد الله

مواليد : ١٩٥١ - الدنابيق / المنصورة .

عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب .

اتحاد المسرحيين العرب .

صدر له :

في القصة :

١- مشاهد من حكاية الوابور المقدس (قصص) .

جمعية الأدباء والفنانين الشبان (القاهرة ١٩٧٨) .

٢- من أوراق موت البنفسج (قصص)

أصوات أدبية / هيئة قصور الثقافة (١٩٩٥)

٣- ظهيرة اليقظة (قصص)

هيئة قصور الثقافة / إقليم شرق الدلتا (١٩٩٩)

حازت أفضل مجموعة قصصية علي مطبوعات النشر الإقليمي

٤- تداعيات الزمن المر (قصص - رواية قصيرة)

هيئة قصور الثقافة / إقليم شرق الدلتا (٢٠٠١)

في المسرح :

١- المسرح العربي والتحدي الحضاري

الشركة الوطنية للنشر / الجزائر (١٩٨٤)

٢- الثابت والمتحول في المسرح العربي

(الشركة الوطنية للنشر / الجزائر (١٩٩٠) .

حوارات ودراسات ثقافية :

١- شدو طائر عربي

دار النديم / القاهرة (١٩٩٩) .

٢- بيت من زجاج وحجر

ثقافة الدقهلية (٢٠٠٢)

تحت الطبع :

١- التوظيف السياسي للأقنعة في المسرح العربي .

٢- وقائع أيام الرمام (رواية) .

سلسلة إبداعات الدقهلية

صدر من هذه السلسلة

◆ الشعر في المنصورة	مجموعة من الشعراء	١٩٩٣
◆ القصة في المنصورة	مجموعة من الكتاب	١٩٩٣
◆ رحيق القصة في الدقهلية	مجموعة من الكتاب	١٩٩٨
◆ رحيق الفصحي في الدقهلية	مجموعة من الشعراء	١٩٩٨
◆ رحيق العامية في الدقهلية	مجموعة من الشعراء	١٩٩٨
◆ أوراق أدبية	فؤاد حجازي	١٩٩٨
◆ بطاقة عائلية (مسرحية)	عبد الفتاح الجمل	١٩٩٨
◆ مواويل لميت سلسيل (شعر)	سمير عبد الباقي	١٩٩٩
◆ وجيه عبد الهادي	(كتاب تذكاري)	١٩٩٩
◆ أحسن القصص (قصص)	إبراهيم حمزة وآخرين	١٩٩٩
◆ نافذة علي بحر طناح (رواية)	فؤاد حجازي	١٩٩٩
◆ إطلالة نقدية (دراسات)	د. عبد المنعم تليمة وآخرين	١٩٩٩
◆ أحسن الأشعار (شعر)	مجموعة من الشعراء	١٩٩٩
◆ المخاض (رواية)	عادل حجازي	١٩٩٩
◆ قيثارة السماء	محمد محمود عبد العال	١٩٩٩
◆ أوتار الدقهلية (دراسات)	أمين مرسي	١٩٩٩
◆ حروف من قش (شعر)	محمد ننا	١٩٩٩
◆ أحزان القمر (شعر)	محروس السلاموني	١٩٩٩
◆ المتاهة (شعر)	أشرف القراني	١٩٩٩
◆ معزوفات قصصية (قصص)	مجموعة من الكتاب	١٩٩٩
◆ عيون الليل (شعر)	صفوت العسال	١٩٩٩
◆ ت: (قصص)	طارق العوضي	٢٠٠٠
◆ كل هذي النجوم (شعر)	وليد فؤاد	٢٠٠٠
◆ نوبة جنون (شعر)	ناجي عبد المنعم	٢٠٠٠
◆ وعطرك يبقي (شعر)	محمد النبوي	٢٠٠٠
◆ في محراب الآه (شعر)	المتولي زيادة	٢٠٠٠
◆ رؤي جديدة (دراسات)	مجموعة من النقاد	٢٠٠٠
◆ إبداعات القصة في الدقهلية	مجموعة من الكتاب	٢٠٠٠
◆ الرقص علي طبول مصرية	فؤاد حجازي	٢٠٠٠
◆ شعر إبراهيم رضوان	إبراهيم رضوان	٢٠٠١
◆ رحيق الكلمة (دراسات)	فرج مجاهد	٢٠٠١
◆ يوم مناسب للقتل	أشرف حسن	٢٠٠٢
◆ أحلام علي الطريق	محمد خيرت حماد	٢٠٠٢
◆ إطـــلالة (دراسات)	أمل جمال	٢٠٠٢
◆ ذئاب بني مروان	محمد خليل	٢٠٠٢
◆ ظلال الإبداع	أبحاث المؤتمر الأدبي الثالث	٢٠٠٢
◆ الحريقة (مسرحية)	فتحي البريشي	٢٠٠٢
◆ القربان (شعر)	صفي الدين ريحان	٢٠٠٢
◆ الشمبانزي يمص القصب (قصص اطفال)	فؤاد حجازي	٢٠٠٢
◆ بيت من زجاج وحجر (مقالات)	إبراهيم جاد الله	٢٠٠٢

رقم الإيداع بدار الكتب
٨٧٨٤ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-6072-0-8-9
دار الإسلام للطباعة والنشر
٠١٢٢٦١٤٣٦٣ - ٢٢٥٠٤٥٣ / ٠٥٠

وما يعنينى هنا . هو هذا الكشف الذى سيقوم به القارئ عن المنتج المعرفى لسؤال شرعى طرحته فى واحدة من تلك المقالات ، وأظنه يلقي بظلاله علي الأخريات ، وهو ما الذي نكتبه اليوم ، وليس مانكتب عنه ، فالكتابة " عن " أصبحت من مخلفات الزمن .

وليس المطلوب أن يبحث الكاتب عن قضية كي يعتنقها ، ولكن من الضرورى ألا يتجاهل أو ينكر قضايا قائمة . فقضية الإنسان لم تستنفذ بعد ، وأحاول بقدر جهدى - القليل - تأكيد ذلك .

فإذا لم يكن الإنسان قضية .

فما تكون القضية ؟

دار الإسلام للطباعة والنشر
٠١٢٢٦١٤٣٦٣ / ٢٢٥٠٤٥٣